

مصر الفتية

للكاتب البريطانى
ديزموند ستيوارت

تعريب وتلخيص
وديع رزق فايل

كتب سياسية

الكتاب الحادى والسبعون



مصر الفتية

للكاتب البريطانى

دزموند ستيوارت

تعريب وتلخيص

وديع روفائيل

YOUNG EGYPT



Desmond Stewart

ديزموند ستيوارت

كاتب بريطاني من أصل اسكتلندي ، ولد في بريطانيا في أبريل سنة ١٩٢٤ ، ومنـــذ عام ١٩٤٨ وهـو يعيش في الشرق الأوسط متنقلا بين ربوعه .. وتفهم العرب : نزعاتهم ومشاربهم وتأثر بهم تأثرا شديدا يبدو بوضوح في قصتيه «فهد بين الحشائش» و «البريطاني البغيض» . وبلغ تقديره للعرب ، واحترامه لهم ، وايمانه بمبادئهم، واعجابه بكفاحهم مبلغا كبيرا لدرجة انه أصبح يحس وهو في وسطهم بالاطمئنان أكثر مما يحس به في وطنه .

وعمل فترة من الوقت أستاذا مساعدا في جامعة بغداد أصدر خلالها بعض الكتب أهمها : « بابل الحديثة » ، و « مشاهداتي في العراق »

بريطـاني يكتب عن ثورتنا

كيف ينظر الكتاب الغربيون الى الثورة ؟ وكيف يفكرون فيها ؟ هذا هو موضوع كتاب « مصر الفتية » الذى الفه الكاتب البريطانى ديزموند ستيوارت ٠

وحين يكتب بريطانى عن ثورتنا ، ويقـــدم للشعوب التى تتكلم الانجليزية خلاصة آرائه المبنية على الحقائق المدروسة ، انما يكشف النقاب عن هذه الحقائق التى حاول ساسة بريطانيا ولا زالوا يحاولون تغطيتها واســدال الستائر عليهـــا حتى لا تراها أعين الشـــعب البريطانى ٠

ان السياسة الغربية التى تقف موقف العداء الســـافر للسياسة العربية التحررية المنبعثة من ثورة ٢٣ يوليو ، ســـياسة استعمارية حمقاء ، تقف أمام تطور التاريخ ، وتعاكس تيار الشعب العـــربى المتدفق ، وتناصر حفنة من الأعوان الاذلاء ممن لا يقيم لهم التاريخ وزنا ، ولا تلتفت اليهم الشعوب الا حين تضربهم الضربة القاضية ٠

وهذه السياسة الغربية التى لازالت مستمرة فى عداوتها للشعب العربى ، متهجمة على أقدس مقدساته ٠ محاولة سلب حريته ، مقضى عليها بالفشل ، ونهايتها تقترب لحظة بعد لحظة ٠

ولم تكن ثورة ٢٣ يوليو ، الا نقطة الابتداء فى الانطلاق العربى ، وأول الخيط الذى جذبته شعوبنا فى قوة وبراعة لتصل الى نهـــاية

الشوط فى كفاحها • ولم يكن فى استطاعة الاستعمار أن يحـول التاريخ عن نقطة الابتداء ، ولم يكن فى استطاعته أن يقطـع الخيط الذى انبلج معه فجر الحرية ، وتبين أمام عيون شعبنا ناصعا مشرقا •

واذا كان خداع بريطانيا قد نجح فى ايقاع الفرقة بين صـفوفنا خلال بعض فترات الكفاح ، فان هذا الخداع لن ينجح بعد أن سقط اعوان بريطانيا فى بلادنا الى الابد •

ونحن لا ننسى فلسفة الرئيس عبد الناصر فى مقاومة الاستعمار، فانه لم يقاوم الاستعمار وحـده ولكنه كافح الاستعمار وأعـوان الاستعمار ، وهكذا نجحت الثورة فى سلوك طريقها القويم ، وأقامت اسسها على مبادىء مدروسة •

ونحن حين نقدم هذا الكتاب للقارىء العربى انما نقدم وجهة نظر بريطانية ، ونرجو أن يرى القارىء فى هذا الكتاب متعة تزكى كفاحه، وحقا تنبعث منه ومضات جديدة فى نضاله •

اننا فى معركة زادها الايمان ، ووقودها الكفاح والنضال •

ونحن نجد فى كافة شعوب الأرض الملايين الذين يؤيدون كفاحنا ونضالنا ، ومن بين هؤلاء بعض أبناء الشعب البريطانى نفسه !!

وهذا هو ديزموند ستيوارت الكاتب البريطانى يتحدث عن ثورتنا حديث الحق ليرد على حديث الباطل الذى يروجه ساسة بريطانيا وهم يعلمون •

« عبد المنعم شميس »

جمال عبد الناصر

بقلم : ديزموند ستيورت

ان الصداقة التى يقبلهـــا الرئيس جمــال عبد الناصر لا بد وأن تقوم على أساس معاملة الند للند . والى أن تبدى دول الغرب استعدادها لقبـــول وجهة نظـــر الرئيس عبـــد الناصر والاعتراف بأن مصر لها من المصالح ما لا يقل أهمية عن مصالحها ، حينئذ يحق لها أن تطالب بصداقة العرب .

(نشر هذا المقال فى مجلة يوربيان فى ابريل سنة ١٩٥٧)

ربما يكون الشعور بالخزى والعار من الصفات التى لم يتعودها البريطانيون عموما ، بيد أنه ما من انجليزى واحد من الذين كانوا يعيشون فى منطقة الشرق الأوسط فى نوفمبر من عام ١٩٥٦ لم يشعر بهذا الشعور يتطرق الى نفسه ويملك عليه جل احساساته ، حدث هـــذا عندما شنت بريطانيا وفرنسا .. واسرائيل هجومها (الغادر) على بور سعيد ، وعندما كانت اذاعة لندن تكيل التهم (الكاذبة) الى مصر .. والى زعيمها جمال عبد الناصر .

وانكشفت المؤامرة ، ولم تجز الحيلة على أحد ، وعرف الجميع ــ حتى طفل الثامنة ــ أن سياسة سير أنتونى ايدن ، وهو فى أوج مجده ، لم تؤد الا الى الخراب والدمار : تعطيل فى قناة السويس ، نسف أنابيب البترول ، الانقسام بين دول الكومنولث ، الفضيحة ووصمة العار التى لحقت ببريطانيا فى نظر العالم .

.. وحاول السير ايدن التماس الأعذار ، ومع ذلك فقد كان الهدف الأول من هذه الحملة واضحا لكل انسان : تحطيم جمال عبد الناصر .. كشخص ، وكرمز للمبادىء التحررية التى بات يعتنقها العرب فى كل مكان . وكانت اذاعة « صوت العرب » من أولى الأهداف التى هاجمها المعتدون .. ترى لماذا اعتدى مستر ايدن على محطات الاذاعة المصرية اذ كان حقيقة ما يدعيه من أنه كان يريد الوقوف بين جيشين وانقاذ القناة ؟ ان الاجابة الصحيحة على هذا السؤال لم تكن بخافية على أى انسان .. من مراكش الى بغداد : وهى أن اذاعة صوت العرب كانت دائما تقول الحق ، وأن ايدن وشركائه ارادوا أن يبطلوا صوت العرب . ولكن ما هى الا أيام قليلة حتى عادت القاهرة ترسل اذاعتها عبر الأثير من جديد ، وعاد الجميع يستمعون ويستمتعون بذلك الصوت الجهورى : هنا القاهرة ..

- لقد قتل أناس كثيرون ، وجرح آخرون ، ودمرت مساجد وكنائس ومنازل كثيرة .. ولكن صوت الحق لم يخفت ، ولم ينهزم المصريون ولم يضعف جمال عبد الناصر ، بل على العكس من ذلك تماما .. خرجت مصر كما خرج عبد الناصر من هذه المعركة أشدة قوة وأصلب عودا .

وفى يوم الجمعة .. بعد الانتهاء من فريضة الصلاة فى الأزهر الشريف خطب عبد الناصر فى عشرين ألف من المواطنين المصريين خطابا حماسيا رائعا لا تزييف فيه ولا تضليل أكد فيه مرارا أن مصر التى تدعو الى السلام لن ترضى أبدا بالهزيمة أو الاستسلام لأى سيطرة أجنبية . وبينما كان يتحدث الرئيس تذكرت قول نيتشه : « ما لا يقتلنا فهو يجعلنا أكثر قوة » .. فقد صدق هذا القول بالنسبة لمصر .. وعبد الناصر على السواء ، وأصبحت أسهمه فى مصر ، بل وفى العالم أجمع أكثر ارتفاعا من قمة افرست وأقوى مركزا مما كانت عليه قبل العدوان « الغاشم » الذى شنه بن جوريون وحلفاءه من البريطانيين والفرنسيين . واتضحت هذه الحقيقة وضوحا لا يدعو

مجالا للشك منذ اللحظة التى وجه فيها مستر ايدن انذاره المشئوم وبعد أن استدعى الرئيس جمال عبد الناصر سير همفرى تريفليان ، السفير البريطانى فى مصر حينذاك ، وأبلغه فى قوة وصرامة أنه لا يمكن أن يقبل مثل تلك الشروط بأى حال من الأحوال .

هذا هو عبد الناصر الذى خلص بلاده من الظلم والاستعباد فى الداخل .. ثم من السيطرة والنفوذ الأجنبى فى الخارج . والآن دعنا نلقى نظرة سريعة الى مصر قبل .. وبعد الثورة :

يبدو لأول وهلة أن مصر كانت تعيش فى ظل نظام ديمقراطى : برلمان .. وأحزاب .. وانتخابات .. الخ . ولكن هل كانت تعبر الحكومات - المسئولة أمام الملك فاروق - عن رغبات الشعب المصرى ؟ وهل كانت هذه الحكومات تعمل من أجل مصلحة الشعب وتحقيق ما كان يصبو اليه من أمان وآمال ؟ ان الذين زاروا مصر فى تلك الآونة يعرفون حق المعرفة طبيعة العلاقات القائمة حينذاك بين السواد الأعظم من الشعب وبين أولئك الباشوات الاحتكاريين الذين كانت تتألف منهم الحكومات . وطبيعى أن هذه الحكومات لم تلق أى تأييد من الشعب ، هذا بالاضافة الى أن الحكام أنفسهم لم يكونوا من المصريين .. انما كانت تجرى فى عروقهم دماء الأتراك والألبانيين. والخلاصة أن الطبقة الحاكمة فى مصر قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ كانت أبعد ما تكون عن معرفة مطالب الشعب الحقيقية ورغباته .. تماما مثل الطبقة الارستقراطية التى كانت تحكم فرنسا فى القرن الثامن عشر ، والتى أدت مفاسدها الى قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ .

أما اليوم ، فما من أحد - مهما كانت درجة عداوته - يستطيع أن ينكر التأييد الشامل الذى يتمتع به الرئيس جمال عبد الناصر فى نظر المصريين .. بل وفى قلوب العرب جميعا . انهم يتبعونه ويسيرون وراءه صفا واحدا متماسكا لتحقيق الآمال العريضة والأعمال الضخمة التى ربما ناء بحملها هرقل .. لقد استطاع عبد الناصر أن يسترد لمصر حريتها المسلوبة .. وهاهو يبذل الجهود

الجبارة للتغلب على المشكلات الاقتصادية الناتجة ـ الى حد كبير ـ عن الزيادة المطردة فى عدد السكان ٠

ولا أدل على تأييد الشعب للرئيس جمال عبد الناصر ومقدار الحب الخالص الذى يكنونه لزعيمهم من أنه يسير فى عربته المكشوفة فى شوارع القاهرة المزدحمة دون حراسة ٠ وهنا يستحق للمرء أن يتساءل : هل يستطيع الجنرال هاردنج أن يقطع شوارع ليماسول فى عربة مكشوفة ؟! ان فى حب الشعب لعبد الناصر ما يدعو الى التفاؤل بمستقبل زاهر للمصريين جميعا ، تماما كما تدعو كراهية الشعب القبرصى للجنرال هاردنج الى الاعتقاد بأن القوات البريطانية ستجلوا حتما عن جزيرة قبرص ٠٠ ان عاجلا أو آجلا ٠

ربما يقول بعض الناس أن عبد الناصر عدو للغرب ٠٠ بيد أن هذا القول يحمل خطأ كبيرا ، فالحقيقة هى أن عبد الناصر لا يعادى أحدا ، انما هو يريد السلام لكل الشعوب ٠ طبيعى أنه ليس صديق الغرب ولا يمكن أن يكون صديقا لهم بالمعنى الذى يريدونه : أداة طيعة فى أيديهم أو مطية سهلة لتنفيذ أغراضهم الاستعمارية ٠٠ ذلك النوع من الأصدقاء الذى طالما اعتمدت عليه بريطانيا أجيالا طويلة ، ولكن هل حققت هذه السياسة أغراضها ؟٠٠ ان صديقا تشتريه اليوم بالمال ٠٠ يمكن أن ينقلب غدا الى عدو يشتريه الغير اذا عجزت عن الدفع ٠ ومما لا شك فيه أن عبد الناصر لا يقبل أبدا أن يكون صديقا كهذا ٠ ان الصداقة التى يريدها عبد الناصر ـ شأنه فى ذلك شأن كل رجل حر ـ لا بد وأن تقوم على أساس معاملة الند للند ٠٠ وهذا هو ما لم يفهمه ساسة بريطانيا حتى الآن ، وما دام الأمر كذلك فلن يصبح عبد الناصر صديقا للغرب الذى يطالبه بأمور يأبى أى وطنى مخلص لوطنه أن يوافق عليها ٠ والى أن تبدى دول الغرب استعدادها لتفهم وجهة نظر الرئيس عبد الناصر والى أن تعترف بأن لمصر مصالح لا تقل أهمية عن مصـــالح الغرب ٠٠ عندئذ يصبح عبد الناصر صديقا يعتمد عليه ٠



تمهيـــد

في ربيع عام ١٩٤٩ اغتنمت شركات السياحة في الشرق الاوسط فرصة اقامة معرض زراعي في مصر فلجأت الى تخفيض أجور السفر لتشجيع أكبر عدد من الاجانب لزيارة القاهرة ـ خاصـة وأن أعمال الشركات كانت قد تعطلت فترة من الوقت بسبب الحرب الفلسطينية ٠ ولم أكن شخصيا في حاجة الى مثل هذا التشجيع ، لأنني كنت قد سئمت الأوضاع القائمة حينئذ في العراق ، لذلك قررت الرحيل الى القاهرة ٠

وكان الشتاء قد انقضى في بغداد في هدوء ٠٠ فلا اضطرابات ولا مظاهرات مثل التي اجتاحت البلاد في يناير عام ١٩٤٨ على اثر توقيع الاتفاقية العراقية الانجليزية بين مستر بيفن ورئيس الوزارة العراقية ٠ وفي الحقيقة فقد اهتزت مدينة بغـداد في هذا الوقت اهتزازا عنيفا وهب الشعب صارخا في وجه تلك الاتفاقية ٠٠ وقامت المظـاهرات ٠٠ وامتلأت القبور بعـدد كبير من جثث الضحـايا والشهداء ٠٠ ضحايا الوطنية وشهداء الحرية ٠

وفي القاهرة توجهت لزيارة متحف الآثار حيث شاهدت أثارا عريقة وتحفا ثمينة رائعة يرجع تاريخها الى أقدم العصور وتنم عن حضارة رفيعة ومهارة فائقة ٠ ومما استرعى نظري تابوت كبير من الذهب الخالص على غطائه صورة لفرعون ٠ وبينما كنت ادقق النظر في وجه فرعون الهادئ اذ بي أرى شابا مصريا ، أغلب الظن انه أحد طلبة الجامعة ابتدرني مخاطبا : مرحبا ٠٠ هل أنت انجليزي ؟ فلما أيدت حدسه أخذ يشرح لي في فيض من الانجليزية كيف كانت عظمة قدماء المصريين ، ومقدار ما قد أحرزوه من تقدم في العلوم والفنون ٠

ولكن ماهي الا دقائق قليلة حتى رأيت جنديا يأمر هذا الشاب

بالابتعاد عني ـ كما لو كان شحاذا يلاحقني كي أمنحه قرشا وليس بشاب يهزه الفخار وتدفعه الرغبة في أن يسكب في نفسي بعض خيلائه لوطنه . وقف الشاب لحظة ثم تركني واتجه الى صندوق آخر به بعض الآثار الذهبية . ثم ارتفعت عقيرته بألفاظ السباب للجندي وأخيرا قال لي بالانجليزية « أترى الحرية التي نعيش في ظلها » ؟ وفجأة انفجر باكيا وهرع خارجا الى الدهليز الطويل المؤدي الى الفناء الخارجي بتماثيله الضخمة التي تطل على الثكنات البريطانية البغيضة لنفوس المصريين جميعا .

ومع انني لم التق بذلك الشاب ثانية ، فقد كنت أحس بصورته تلاحقني في كل مكان .. تماما كما كانت صورة توت عنخأمون ماثلة في مخيلتي ، ذلك انني لم أكن اعتقد أن الشعب المصري يمكن أن يحمل عـاطفة الصداقـة والود بذلك القـدر الذي أحسست به خلال أحاديثهم معي .

ولم تمض علي في القاهرة سوى فترة قصيرة حتى أحسست بالشبه الكبير بين مشاعر الشعبين المصري والعراقي : نفس الحزن ونفس الشعور بأن ثورة على الأبواب . وكان سؤال واحد يتردد على ألسنة المواطنين في القاهرة وفي بغداد : ما نوع الثورة التي ستحدث .. ومن الذي يقودها .. ومتى ؟...

كان صـديقي فهد يريد القضاء على المدنية والعودة بالعرب الى حياة الصحراء البدائية ، وبلغ به الأمر الى أنه كان يعتقد أن المرأة السافرة ليس بينها وبين العاهرة الا خيط رفيع . كانت الصحراء في نظره هي المكان الوحيد الذي لم يتلوث بعد ، وكان يرى المدنية مكانا دنسا فاسدا يفقد فيه العرب أصالتهم ونقاوتهم ...

وعندما انتويت زيارة دار الآثار مرة ثانية لم أستطع اجتياز الشارع الرئيسي المؤدي الى الميدان : فقد كان الجنود من حاملي المدافع

السريعة الطلقات يحاصرون الشارع وهم شاكى السلاح فى وجه المتفرجين من أبناء الشعب ٠٠ وسمعت شخصا يهمس فى اذن جاره « فاروق » ٠ ولكنى لم أر فى العربة التى مرقت أمامنا كالسهم الخاطف الا طربوشا أحمر ووجها ضخما مستورا وراء يد ترتفع وئيدة وتهوى وئيدة ونظارة سوداء ٠٠ ربما كانت تلك هى الدميه الملكيه التى كتب عنها القصصى الانجليزى ماكس بيرباهم : آلة تتحرك يدها الى أعلى ثم الى أسفل بينما الملك الحقيقى قابع فى قصره غارق فى ملذاته ٠

وبعد أن مر الركب عدلت عن زيارة المتحف وتوجهت الى جروبى حيث وجدت صديقى الدكتور زكى الذى ابتدرنى بقوله :

- هل ذهبت الى دار الآثار ؟

- وصلت اليها ولكننى لم أدخل لأننى رأيت الملك فى الطريق

- أحقا ؟

- نعم ٠٠٠ ولكنى أعتقد أن الثورة قائمة لا محاله ٠ ألا تعلم متى ستقوم هذه الثورة ؟

- انى لا أثق فى المتنبئين ولا أعرف شيئا عن الفلك ٠

- ولكنك توافقنى انها أكيدة ؟

- كفيلسوف فاننى أشك فى الحقائق ٠

- هذا حقيقى ٠٠ ولكنك توافق على الأقل انها محتملة ؟

وهنا نظر الى زكى خلال نظارته بعينيه السوداوتين وسالنى ٠٠ ما الذى يجعلك متأكدا الى هذا الحد ؟ انك لم تر سوى الملك وبعض الناس يصفقون ٠

ولم نكن وحدنا الذين يتكلمون فى هذا الموضوع ، بل ان همهمة

الجالسين قد طغت على الهدوء فى جروبى ، وكان الجميع يتحدثون بصوت منخفض وبلغات كثيرة ـ انجليزية وفرنسية ، ايطالية ويونانية وعربية ٠٠٠ ـ فى نفس هذا الموضوع ٠٠ الثورة ٠

وأخيرا ٠٠ بعد نقاش طويل وافقنى زكى على أن الثورة تسير بخطى حثيثة ، وأن عجلتها تدور منذ فترة ٠ ولكن متى يشتعل لهيبها ؟ ومن الذى يحمل لوائها ؟ هذا ما لم يكن يعرفه أحد حتى ذلك الوقت ٠ هل هم الاخوان المسلمون الـذين يريـدون العودة بالاسلام ثلاث عشر قرنا الى الوراء ؟ أم رجال السياسة الذين فقدوا هم ومليكهم ثقة الشعب وتأييده ؟

أم الجيش الذى كان كبار قادته هم رجال القصر المخلصين ؟؟؟

المؤلف

مصر قبــل الثورة

تستهدف الثورات القــائمة على أســــاس الانتفاضات التحررية الحقيقية قلب نظام حكم بغيض غير مرغوب فيه ، واقامة نظام آخــر يرعى مصالح الغالبية العظمى من أبناء الشعب ، فالثورة هى السبيل الى تغيير الجهاز الفاسد واستبداله بجهاز جديد أقدر وأمضى ، يعمل على حل مشكلات المجتمع وتحقيق ما يصبو اليه المواطنون من أمان وآمال وما يريدون التخلص منه من آلام ٠

لمحة خاطفة عن حياة المصريين قبل الثورة :

كان المجتمع المصرى يتنازعه عوامل كثيرة ، ذلك أنه كان يتكون من عدة عناصر تتباين مصالحها وتتفاوت ، بل وتتعارض أيضا فى كثير من الاحيان ـ ولو أن هذه العناصر كانت تشترك جميعـــا فى هدف واحد ٠٠ ألا وهو الرغبة فى الحياة ٠٠

اولا ـ الاستعمار :

كانت بريطانيا ٠٠ والاستعمار البريطانى ٠٠ وجيوش الاحتلال البريطانية هى أقوى العوامل الفعالة فى توجيه حياة المصريين خلال القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين ٠

ثانيا ـ الخديو :

كان الوالى أو الخديوى هو العنصر الاول من العناصر المؤثرة فى حياة المجتمع المصرى : لقد كان محمد على رجــلا استبداديا ، وكان عباس غبيا ذا مبادىء رجعية ، وكان اسماعيل مسرفا الى حد أنه لم يستطع دفع فوائد ديونه ، أما توفيق فقد سلم بلاده لقوات الاحتلال

وكان أن استطاع كرومر أن يجعل من حكام مصر دمى يحركهــا كيفما يشاء ، وسيطر عليهم جميعا عن طريق المــال حينا وبالتهديد

حينا آخر أو اغراقهم بالمتع والملذات ٠٠ ولكن الغريب هو أن هـذه الدمى الضعيفة كانت لها القـدرة على اسـتعباد الشعب المصرى واستغلال جهود أبنائه أسوأ استغلال ،ومعـاملة الفلاحين وأفراد الطبقة الكادحة أسوأ معاملة ٠ ولم تكن بريطانيـا لتهتم بشخصية الخديو ، فسواء أكان جبانا ضعيف الشخصية ، سهل الانقيـاد ـ كما كان توفيق ـ أو شجاعا ـ كما حاول عباس أن يكون ـ فقد كانت الكلمة الاولى فى البلاد هى كلمة المندوب السامى البريطانى أو من يمثله : ومن أصدق الامثلة التى تبرهن على صحة هذا الكلام ما حدث فى وادى حلفا عنـدما صرخ الملازم كتشنر فى وجه الخديو الصغير مذكـرا اياه أن مهمته تقتصر فقط على ارتداء ثوب الحاكم ولكن ليس له أن يعترض ٠٠ وفعلا رضخ عباس وتعهد بأنه ـ بينما هو يجلس داخل العربة ـ سيترك كرسى القيادة لبريطانيا ، وفى مقابل هذا خصصت له ميزانية خاصـة ينفقهـا على ملذاته ومتعه الشخصية ٠ وهكذا تنازل الخديو عن أبسط حقوقه ـ وأهم واجباته، وبدلا من أن يكون هو الحاكم الشعبى الذى يتولى تصريف أمور رعيته أخذ يتحول عنهم شيئا فشيئا الى أن أصبح طاغيتهم الاول ٠ وفى هذا المعنى يقول بلنت فى مذكراته :

« تكلم الشيخ محمد عبده عن النشاط التجارى الذى كان يقوم به الخديو عباس دون مراعاة لمركزه أو احترام لمنصبه فقال : لقـد كان عباس يستأجر القوارب والسفن ثم يعيـد تأجيرها لحسـابه الخاص ٠ كما حاول الحصول على امتيـاز يخول له السلطة لاحتكار الصيد فى بعض المناطق ـ على حساب الفقراء من أبناء الشعب ٠وفى الحقيقة فلقد كان لجميع أفراد أسرة محمد على ولع شديد بالتجارة ، ولم يكونوا ليهتموا بشىء ما قدر اهتمـامهم بجمع الاموال وتكوين الثروات » ٠

ثالثا ــ رجال الاقطاع :

لم يكتف الاقطاعيون باحتكارهم للاراضى الزراعيـــة واستثمار أموالهم فى المشروعات التى تعـــود عليهم بالربح فى أقصر وقت ـ دون ان يهتموا بتلك المشروعات التى تهـــدف الى تحسين حيـــاة الفلاحين وانقاذ الاقتصاد المصرى من الانهيار ، بل انهم أسهموا فى التعجيل بهذا الانهيار وخاصة بعد أن لجأوا الى الاستدانة من الدول الاجنبية (فى عام ١٩١٤ بلغت الفوائد على الديون الخارجية ما يزيد عن ثمانية ملايين جنيها استرلينيا) ٠

وكانت الغالبيـــة العظمى من رجال الاقطـــاع من الاتراك الذين حاولوا تثبيت سلطانهم بشتى الطرق والوسائل فأخذوا يضربون بقوة وعنف على كل حركة أو انتفاضة شعبية من شأنها الانتقاص من نفوذهم وامتيازاتهم المجحفة ٠ وفى سبيل تحقيق مصالحهم الذاتية وأغراضهم ونزواتهم الشخصية ، لجأوا الى احتكار المناصب العليا فى البلاد ، كما وضعوا قيودا مشددة عند اختيار ضباط الجيش بحيث لم يسمح الا لابناءهم هم فقط بمزاولة هذه المهنة ، واستمرت هذه القيود مفروضة على اختيار الضـــباط الى أن سمحت الســـلطات البريطانية فى عام ١٩٣٦ بقبول أبناء الطبقة المتوسطة فى الكليـــة الحربية ــ بيد أن بريطانيا لم تلجأ الى هذا العمل حبـــا فى الطبقة المتوسطة ٠٠ انما لجأت اليه لتحقيق أغراضها الخاصة ورغبتهـــا فى زيادة عدد الجيش المصرى لاستخدامه فى الحرب ضد ايطاليا ٠

ومع أن صوت الشعب لم يضعف أبدا ، ومع أن الطبقة المتوسطة ـ مثلها فى ذلك مثل نظيراتها فى غالبية الدول ــ قد ارتفعت عقيرتها بالهتافات الوطنية الحماسية ، وعلى الرغم من أنهـــا قد حاولت عن طريق الحزب الوطنى أن ترفع الغبن الواقع عليها ، فقد استمر رجال الاقطاع فى تسخير الفلاحين واستنزاف دمائهم ، بل انهم لجأوا أيضا الى التعـــاون مع السلطات البريطانيـــة فى سبيل تحقيق مصالحهما

المشتركة على حساب السواد الاعظم من أبناء الشعب : وهكذا اشترك الاقطاع مع الاستعمار فى تقويض دعائم المجتمع المصرى واستغلال موارد البلاد تاركين عامة الشعب فى حالة يرثى لها من الجهل والفقر والمرض ٠

رابعا - الرعايا الاجانب :

ولم يكن الاجانب من رعايا اليونان وفرنسا وايطاليا خاضعين للقانون المصرى ، ولم يحاولوا أبدا احترام عادات المصريين وتقاليدهم ولما كان هدفهم الاول هو تكوين الثروات الطائلة وتهريبها للخارج ، فقد كان من مصلحتهم - كما كان من مصلحة الخديو ورجال الاقطاع - استمرار السيطرة الاجنبية على شتى مسالك الحياة فى البلاد ٠

اقرأ معى هذه الحادثة الحقيقية التى نقلتها عن أحد المراجع الانجليزية والتى تعبر عن الجرم الكبير الذى كان يقترفه الاجانب فى حق المصريين :

« فى صباح اليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٨٩٣ تقدم المدعو ابراهيم الشافعى بشكوى ضد أحد الرعايا الاجانب من أصحاب محال الشرب فى بلدة المرج ، والذى حدث هو أن مقدم الشكوى كان يقوم برى قطعة من الارض تجاور وتسير بحذاء قضبان السكك الحديدية ٠ ولما كانت القناة الضيقة التى تحمل المياه الى الارض تمر من أمام الحانوت ، فقد قام الاجنبى بردمها ولكن الفلاح - الذى كان له كل الحق فى استخدام القناة - اعترض على الرجل الاجنبى وطلب منه أن يسمح بمرور المياه ريثما يتم له رى ارضه وتعهد بأنه سيتولى ردمها بنفسه بعد ذلك ٠ ثار الاجنبى على الفلاح المصرى وأمسك بعصا غليظة وأخذ يضربه ضربا مبرحا ، وعندما استطاع الفلاح انتزاع العصا من يده هرول الى داخل حانوته وعاد مصوبا بندقيته الى صدر الفلاح ، وأطلق عليه رصاصا أصابه

فى مواضع كثيرة من قدميه وفخذيه .. ولكنه لم يمت . والغريب فى هذه الحادثة أنه على الرغم من اعتراف الاجنبى بجرمه فقد أطلقت السلطات سراحه بعد أربعة أيام ، وعاد يزاول نشاطه فى المشرب كأن لم يحدث شيئا .

ثم اقرأ أيضا هذه المحادثة التهكمية التى كتبهـــا أحد المصريين يسخر فيها من الطريقة التى كان يستخدمها الاجانب فى ابتزازخيرات الشعب المصرى .وما كان يفعله التجار منهم للاستيلاء على المحصولات الزراعية من الفلاحين بأرخص الاسعار :

الفلاح : هل يمكن لكأن تقرضنى مائة جنيها ؟

التاجر : الفائدة ٢٠٪

الفلاح : لك ما تريد .

التاجر : حسنا .. اخصم عشرين جنيها من مائة .. كم يتبقى ؟

الفلاح : اننى لا أجيد العمليات الحسابية ـ خبرنى أنت .

التاجر : يتبقى سبعون جنيها .

الفلاح : فقط ؟

التاجر : نعم .. وبما أنك تريد اقتراض مائة جنيه ، عليك أن تضيف عليها عشرين جنيها ـ قيمة الفوائد ـ ثم تكتب الكمبيالة .

الفلاح : ها هو خاتمى .. اكتبها أنت .

وعندما حان موعد سداد الدين توجه الفلاح الى التاجر ومعه عشرة قناطير من القطن وعشرة من السمسم وعشرين من القمح وثلاثين من الفول وأربعين من الشعير ، ودار بينهما هذا الحديث :

الفلاح : دعنا نسوى حسابنا .

التاجر : حسنا ٠٠ هذا القطن يساوى عشرة جنيهات ، وثمانية للسمسم وعشرة للقمح وثلاثين للفول وأربعين للشعير

الفلاح : كم يكون ثمنها جميعا ؟

التاجر : سبعون جنيها ٠ يخصم هذا من ١٢٠ جنيهـــا يتبقى تسعون جنيها ، أضف اليها فائدة ٢٠٪ يصير الدين الكلى الآن ١١٥ جنيها ٠

الفلاح : انى فى حاجة الآن الى ثلاثين جنيها

التاجر : اذن يصبح الدين ١٦٠ جنيها وعشرة شلنات

الفلاح : ولماذا هذه الشلنات ؟

التاجر : نظير قيامى بالعمليات الحسابية وكتابة الكمبيالات

انتفاضات :

هذا الظلم ، وذلك التعسف من قبل الاجانب والحكام على السواء ، بالاضافة الى حالة التبرم التي سادت الطبقات الفقيرة من الشعب أدت الى ظهور بعض الحركات الشعبية التحررية يقودها اناس كرسوا حياتهم لخدمة الوطن والتعبير عن مشاعر الغالبية العظمى من المواطنين فكان أن أسس مصطفى كامل الحزب الوطنى للتحدث باسم الشعب وحماية مصالحه والتعبير عن رغبته فى الحرية والاستقلال • وفي الحقيقة فقد جاهد مصطفى كامل جهادا مريرا وبذل محاولات صادقة في سبيل تحقيق الاستقلال القومى للبلاد واقامة حكم نيابى سليم يرعى مصالح الشعب ويعمل على تحقيق آماله •

استمع الى قوله :

« ان شعورا جديدا قد بدأ يجد طريقه الى نفوسنا نحن المصريين •• لقد تحققنا الآن من أن الامم لا تنهض الا على أكتاف المكافحين من أبنائها واستبسالهم فى الدفاع عن قضيتهم ، ان أحدا أيها المواطنون لن يساعدنا على نيل حقوقنا واستقلالنا اذا لم نبذل نحن في سبيلها كل مرتخص وغال • ان الامة نفسها ـ مثلها فى ذلك مثل الافراد سواء بسواء ـ هى التى تستطيع الدفاع عن كرامتها وحماية حريات أبنائها وممتلكاتهم • ان الشعب الذى يعتمد على شعب آخر في سبيل حصوله على حريته واستقلاله فهو شعب ضعيف يخدع نفسه بنفسه » •

وخلال حياته القصيرة ، أحرزت الحركات الوطنية عدة انتصارات عظيمة ، وخاصة عندما حاولت شركة قناة السويس مد أجل الامتياز الممنوح لها أربعين عاما أخرى • وكان أن هب الشعب فى وجه هذه الخدعة الاستعمارية الجديدة واغتيل بطرس باشا غالى رئيس الوزارة حينذاك ، وفشلت الشركة في تحقيق اغراضها ، وبدأت الانتصارات

الشعبية تتعاقب بعد ذلك الواحدة تلو الاخرى ، الى أن توجت جميعا في عام ١٩١٩ بالثورة الشعبية الشاملة التى اجتاحت البلاد من أقصاها الى أقصاها والتى تضافرت فيها جميع عناصر الامة تناوىء الاستعمار البريطانى وتطالبه بالرحيل خاصة وأن الحرب العالمية الاولى كانت قد وضعت أوزارها ، ولم يمض وقت طويل على تصريحات ولسن الخاصة بحق الشعوب فى تقرير المصير · وفعلا رضخت بريطانيا لبعض مطالب المصريين ومنحتهم نوعا من الاستقلال الذاتى وقد تمخض عن هذه الثورة مولد حزب الوفد المصرى بزعامة سعد زغلول ·· ثم النحاس فيما بعد ·

ولكن مصطفى كامل ، وسعد زغلول ، والنحاس لم ينجحوا فى تغيير النظام السائد تغييرا شاملا الى ما فيه مصلحة الجماهير الغفيرة من أبناء الشعب الفقير ، وكانت دسائس بريطانيا ·· والخديو ·· ورجال الاقطاع بالاضافة الى الامتيازات الاجنبية أقوى بكثير مما يستطيع أن يفعله أولئك الرجال ·

ان تقويض مثل هذا النظام الفاسد كان يتطلب أولا وقبل شىء دراسة عميقة جدية لحالة البلاد الاقتصادية واصلاح الحياة الاجتماعية اصلاحا شاملا ، ثم الوقوف فى قوة وصرامة فى وجه الاستعمار البريطانى والخديو ·· أو الملك ·

ولكن الذى حدث هو أن رجال السياسة أنفسهم قد أصبحوا جزءا متكاملا من الجهاز الكبير الفاسد وجرفهم التيار وفقدوا كل صلة تربطهم بالشعب الحقيقى · وتسرب الجشع والطمع بين قادة حزب الوفد وانتشرت الرشوة ، وراحوا يبذلون الجهود لجمع الاموال بأى وسيلة غير عابئين بمصالح الشعب ·

ثم كانت مأساة فبراير سنة ١٩٤٢ عندما عرض النحاس نفسه بالقوة على الملك السابق فاروق بمساعدة القوات البريطانية · وفى

هذا اليوم بالذات بدأت عوامل الانحـــلال تتطرق الى الجهاز الحاكم بأيدى أولئك الذين طالمـــا حملوا دعائمه الاولى ٠٠ البريطـانيون أنفسهم ٠٠ وان يدل هذا الحادث عن شيء انما يدل على قصر نظـر بريطانيا وكيف أنها فى سبيل الحصول على ربح مؤقت قد خسرت كل شيء ٠ كان أهم ما تهدف اليه بريطانيا فى ذلك الوقت هو أن يتولى الحكم فى مصر حكومة موالية تساندها فى نزاعها مع المحور : ذلك النزاع الذى لم يكن للشعب المصرى أية مصلحة للتدخل فيه ٠

وفى الحقيقة فلقد كان للبلاغ الذى صدر فى قصر عابدين فى هذا اليوم ، ٤ فبراير سنة ١٩٥٢ ، ثلاث نتائج أساسية :

١ ـ ضعف مركز فاروق ـ بالنسبة لنفسه وفى نظر الشعب

٢ ـ فقد النحاس ثقة الشعب ٠

٣ ـ اقتناع الشعب المصرى ، بطريقة ملموسة ، بنوايا بريطانيـــا الاستعمارية والمؤامرات التى تدبرها ضد سلامته ٠

وهنا بدأت حركات المقـــاومة الشعبية تعمل فى الخفاء ، فكانت حركة مصر الفتاة ، ثم تكوين جماعة الاخوان المسلمين ٠ واستمرت الازمات تتعاقب عـلى البلاد الواحدة تلو الاخرى ـ بيـد أن حركات التحرر هذه لم تكن من القوة بحيث تستطيع الصمود أمام مدبرى المؤامرات ضد الشعب من البريطانيين وأعوانهم من أصحاب المصالح الذاتية ٠

وفيما بعد الحرب العالمية الثانية ازداد الموقف فى مصر سوءا ، فمن الناحية الداخلية واجهت البلاد زيادة كبيرة فى عدد السكان واكتظت المدن بالنازحين اليهـا من القرى ٠٠ عبثـــا حاول أولئك النازحون الحصول على عمل يقتاتون منه ، فزاد عدد المتعطلين بشكل يدعو للقلق وينذر بقيام أحداث خطيرة ، أما من النـــاحية الخارجية

فكانت مصر فى صراع عنيف مع قوتين كبيرتين : بريطانيـــا ٠٠ ثم الصهيونية التى بدأت تنشب أظافرها فى فلسطين ، وفي عام ١٩٤٧ تم جلاء القوات البريطانية عن القـاهرة والاســكندرية واقتصرت اقامتها على منطقة القنال ٠٠ ولكن مأساة فلسطين كانت قد أوشكت أن تبلغ ذروتها ٠

المشكلة الفلسطينية :

كانت فلسطين جزءا من الامة العربية تحت النفوذ التركى ولم يكن بها من اليهود أكثر مما كان فى العراق أو أى دولة عربية أخرى ، وكان يقطن السهل الساحلى جماعات من اليونانيين والعرب وأقلية ضئيلة من اليهود ، ومع اختلاف لغات هذه الجماعات ودياناتهم فقد كانوا يعيشون فى سلام ووئام وكأنهم اخوة متحابون ٠

ثم حدث أن اشتدت وطأة الحرب على الحلفاء فراحوا يبحثون عن الاصدقاء أينما وجدوا : فأخذوا يثيرون العرب والارمن ضد الاتراك والامريكيين واليهود ضد الالمان ٠ وفى غضون هذه الحرب قام الحلفاء باصدار عدد من المشروعات غير مبالين بالاضرار التى تعرضها هــذه الاتفاقيات على الدول الاخرى : فكانت رسائل مكماهون التى نظـر اليها العرب حينئذ على أنها ربما تؤدى الى استقلالهم عن النفــوذ التركى وجمع شملهم فى دولة عربية واحدة ٠ وكان أيضا وعد بلفور باقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، ثم كانت اتفاقيــة سايكس بيكو السرية ، أو الخطة الاستعمــارية التى اتفقت فيها فرنســا وبريطانيا على اقتسام الدول العربية فيما بينهما ٠ وفى نهاية الحرب صدر مبدأ ولسن الذى يعترف بحق الشعوب فى تقرير المصـــير ٠ وعملا بهذا المبدأ كان من حق عرب فلسطين أن يستقلوا بالبلاد ـ فقد كانوا يمثلون أكثر من ٩٠٪ من السكان ٠ ولكن ٠٠ ؟

وخـــلال فترة الانتـــداب البريطانى على فلسطين فطن العــرب للمؤامرة التى تدبرها بريطانيا ولم يعد من السهل عليهم أن يثقوا

فى نواياها الشريرة ، وخاصة بعد أن بدأ اليهود يهاجرون فى أعداد كبيرة الى فلسطين ويقيمون القلاع على طول الطرق الرئيسية وفى المراكز الاستراتيجية الهامة كتمهيد لبسط سلطانهم على المنطقة بأكملها • وأيقن العرب بأن بريطانيا انما تنتظر زيادة عدد اليهود المهاجرين الى فلسطين حتى تعلن قيام دولة لهم هناك تخدم أغراضها الاستعمارية فى اضعاف قوة الشعوب العربية •

وهنا تقتضينا العدالة والحق أن نقرر بأنه لم يكن من المعقول أن يثق العرب فى بريطانيا بعد ذلك وقد رأوا أنها تعمل على طردهم من ديارهم والاستيلاء على أراضيهم وممتلكاتهم واعطائها لقمة سائغة لليهود •

وفى عام ١٩٤٧ أوصت هيئة الامم المتحدة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود وتدويل منطقة القدس • بيد أن قرار التقسيم هذا الذى خول لليهود حق الاستيلاء على ٥٥٪ من أخصب اراضى فلسطين فى الوقت الذى لم يزد عددهم فيه عن ٣٥٪ من مجموع السكان • يعتبر احقر ما شهده التاريخ من صفقات دنيئة : ويبدو أن موجة من الشعور بالشفقة والعطف على اليهود الذين قاسوا كثيرا على أيدى النازية فى المانيا قد اعمت مندوبى هيئة الامم المتحدة عن رؤية الجرم الشنيع الذى يقترفونه فى حق عرب فلسطين •

وكان من الطبيعى ان يرفض العرب التنازل عن اراضى الآباء والاجداد بمثل هذه السهولة • وهنا اقترفت بريطانيا جريمة اخرى كبيرة فى حق العرب ، فبدلا من أن ترفض قرار التقسيم أو حتى تواق عليه وتتولى تنفيذه ، قررت - فى هذا الوقت الحرج - الانسحاب من فلسطين • وفعلا تم سحب القوات البريطانية فى مايو سنة ١٩٤٨ لتترك لليهود الفرصة للاغارة على العرب العزل والاستيلاء على ديارهم بالقوة • وعمت البلاد موجة من الاعمال الارهابية وكثرت مذابح اليهود واستطاعت فرق الهاجانا اليهودية القاسية الاستيلاء على الكثير من القرى التى يقطنها العرب •

ثار الرأى العـــام فى مختلف الدول العربية ، وطالبت الشعوب حكوماتها بالتدخل السريع لوقف تلك المذابح الوحشية واسترجاع حقوق عرب فلسطين وممتلكاتهم ٠

وبادىء ذى بدء تقدم الجيش المصرى بسهولة فى المنـــاطق التى كانت قد منحت للعـــرب بمقتضى قرار التقسيم : جنوب غـــربى النقب ـ والمنطقة الساحلية عبر غزة حتى المجدل وما ورائها ٠ ولكن خيانة بعض الحكومات العربية أدت الى عـزل الجيش المصرى وتركه وحيدا فى المعركة كما حدث عند انسحاب الفيلق العربى الاردنى ٠ وفى هذه الاثناء تمكن اليهود من شن هجمات وحشية عنيفة على كثير من القرى والمعاقل العربية (كما حدث فى مذبحة دير ياسين التى ذبح فيها اليهود ٢٥٠ عربيا فى ليـــلة واحدة) وعن طريق الغـدر والخيانة ، بالاضافة الى مهارتهم فى انتهاز الفرص تمكنوا من فرض سيطرتهم على مناطق أوسع بكثير من تلك التى خصهم بهـــا قرار التقسيم ٠

حرب فلسطين وثورة ٢٣ يوليو :

وفى الحقيقة كانت حرب فلسطين من الامور التى عجلت بقيـــام الثورة المصرية : ذلك أن الملك والحكومة القائمة فى مصر فى ذلك الوقت قد استغلا فرصة هذه الحرب لتحقيق أغراضهما الدنيئة ٠٠ أغراض مالية (تكوين ثروات عن طريق صفقات الاسلحة الفاسدة) ٠٠ وأغراض انتهازية (لاكتساب ثقة الشعب وتأييده) ٠٠ ولكن حدث أن طلقات البنادق كانت ترتد الى صدور المصريين أنفسهم ، هذا بالاضافة الى أن الجيش المصرى لم يكن قد أحسن تدريبه على العمليات الحربية لان بريطانيا كانت تحرص كل الحرص على أن تقتصر مهمة الجيش على حماية العرش ٠

٠٠٠ بيد أن الحصار الذى فرض على القوات المصرية فى فلسطين،

وسوء التسليح ، وقلة الذخائر والمؤن ، بالاضافة الى خيانة رجال السياسة والقصر فى القاهرة واهمالهم شئون الجيش المحارب ..

كل هذه العوامل لم تمنع جنود مصر البواسل من اظهار بطولاتهم الفذة ومقدرتهم وقوة احتمالهم . وفى الفالوجا ظلت احدى الحاميات المصرية تعانى حصارا دام أربعة شهور طوال وكان من بين ضباط هذه الحامية ضابطا لم يبلغ من العمر حينئذ أكثر من تسع وعشرين ربيعا . كتب هذا الضابط فيما بعد يقول :

« كانت الفالوجا محاصرة ، وكان تركيز العدو عليها ضربا بالمدافع والطيران تركيزا هائلا مروعا .

وكثيرا ما كنت أردد لنفسى هذا القول : هانحن هنا فى هذه الجحور محاصرين ، لقد غرر بنا ، دفعنا الى معركة لم نعد لها . لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات ، وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح ..

وحين كنت أصل الى هذا الحد من تفكيرى كنت أجد خواطرى تقفز فجأة عبر ميادين القتال وعبر الحدود .. الى مصر .. وأقول لنفسى هذا هو وطننا هناك ، انه فالوجة أخرى على نطاق كبير . ان الذى يحدث لنا هنا صورة من الذى يحدث هناك .. صورة مصغرة .. وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والأعداء ، وغرر به .. ودفع الى معركة لم يعد لها ولعبت بأقداره مطامع ومؤامرات وشهوات وترك هناك تحت النيران دون سلاح » ..

كان هذا هو الاثر الاول الذى تركته حرب فلسطين فى كيان هذا الضابط . أما الاثر الثانى فكان اقتناعه بضرورة الوحدة العربية ... فقد رأى أن العرب جميعا يعانون نفس المتاعب ، وأنهم جميعا ضحايا نفس القوى سواء فى الداخل أو فى الخارج . وفى هذا المعنى كتب جمال عبد الناصر يقول : « عدت من فلسطين والعالم

العربى كله فى مخيلتى وحدة لا تتجزأ » وفى الأعوام الثلاثة التى أعقبت حرب فلسطين كان الجهاز الحكومى فى مصر ينحدر من سئ الى أسوأ ، وأصبح الملك فاروق وصمة عار فى جبين كل مصرى يعتز بكرامته فقد كان همه الأوحد هو اشباع نزواته الدنيئة والجرى وراء المتع والملذات وتحقيق رغباته الشريرة ، لذلك كان مما يجرح المصريين جميعا أن يكون مليكهم على مثل هذا الحال من المجون والخلاعة.

حريق القاهرة :

لعل من العوامل التى أدنت قيام الثورة حريق٢٦ يناير سنة١٩٥٢ وتعريض العاصمة للدمار وأرواح الأهالى والأجانب لأبشع مصير ٠

لقد واجهت البلاد فى هذا اليوم المشئوم حالة من الفوضى والرعب: الحرائق تشب فى كل مكان ، والنهب والسلب فى المساكن والمحال والفنادق ، وروح الشيطان تتقمص النفوس الشريرة وتدفعها الى ارتكاب أخس الجرائم وأنذلها ، ودعاة الفتنة والهزيمة يتنقلون هنا وهناك يزيدون الحريق لهيبا والنار اشتعالا ٠

ومهما يكن من أمر مدبرى هذا الحريق فلقد توانى الملك فى طلب النجدة مضحيا بعاصمته تلتهمها النيران رغبة منه فى أن تحل نقمة الشعب على وزراء حكومة الوفد ٠٠ تلك الحكومة التى كان يضمر لها الملك كل حقد وكراهية ٠ وفعلا نجح الملك فى خطته وسقط الوفد من نظر الشعب ٠٠ ولكن بنفس القدر سقط الملك أيضا فى نفس الهاوية التى دبرها لوزارته ٠

وفى الحقيقة فقد برهن حريق القاهرة بصورة دامغة على فساد النظام القائم فى مصر وعجزه عن تصريف أمور البلاد ، ولم تعد الثورة حينئذ شيئا مرغوبا فيه فحسب بل غدت ضرورة ملحة ٠

الثورة ونهاية الملكية :

وما هى الا شهور قلائل تعاقبت فيها على حكم البلاد أربعة وزارات لم تسلم كلها من تدخل القصر ودسائسه ، ولم تنجح احداها فى تخليص البلاد من آثار القلق وحالة الفزع التى تأصلت فى نفوس المواطنين جميعا حتى صدر القرار الحاسم والبيان الحازم . فقد قرر الضباط الاحرار بقيادة ذلك الضابط الذى لم تكن خبراته وخواطره اثناء حرب فلسطين سوى امتدادا للافكار السياسية التى تأصلت فى نفسه وسيطرت على تفكيره وهو لم يزل بعد شابا يافعا.. قرروا التعجيل بثروتهم التى كان يعمل لها جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وأنور السادات منذ قبل الحرب العالمية الثانية . فمنذ ذلك الحين وهم يعملون فى صبر وروية على تكوين جماعة من الضباط يشعرون بمشاعرهم ويحسون باحساساتهم التى هى مشاعر واحساسات الغالبية الساحقة من أبناء الشعب . وبعد جهد كبير تم لهم اختبار واختيار ٢٠٠ ضابط من مختلف وحدات الجيش وقسمت هذه الجماعة السرية الى عدد من الخلايا لا يعرف أعضاؤها بعضهم بعضا . وفى الحقيقة فلقد كان هذا هو السبيل الوحيد لتجنب الدسائس والفتن حتى يمكن القضاء على النظام البالى وارساء قواعد نظام جديد .

ومع أن السلطات كانت تحس بوجود مثل هذه المنظمة (كانت تصدر من وقت لآخر منشورات بتوقيع « الضباط الأحرار ») الا أن أحدا لم يعرف من هم أولئك الضباط الاحرار أو مدى جدية ما ينوون القيام بهمن أعمال . وكان القصر ورجال السياسة يطمئنون أنفسهم حينذاك بأن كل رجل له ثمن وأن أية محاولة للقيام بثورة أو انقلاب يمكن التغلب عليها بسهولة عن طريق الرشوة أو الترقية ... أو الرفت .

... وبينما كان الملك فى الاسكندرية استيقظ الشعب المصرى فى صبيحة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ليستمع بعد تلاوة قرآن الصباح الى النداء الذى اذاعته قيادة الثورة والذى جاء فيه : « لقد قبض الجيش على زمام الأمورفى البلاد لتخليصها منسيطرة النفوذ الأجنبى وجشع الاقطاعيين وطغيان الرأسمالية البغيضة وتحقيق الحرية والعزة والكرامة للمصريين جميعا » .

وهكذا ... ولأول مرة فى التاريخ الحديث يتولى الحكم فى مصر رجال لم يسبق لهم حضور حفلات الكوكتيل فى السفارة البريطانية.

ومما هو جدير بالذكر أن الثورة لم تحاكم الملك السابق فاروق فقد كان هناك جدال طويل بين ضباط الثورة عما عساه أن يتخذ حيال فاروق وارتأت الأغلبية اخلاء سبيله والاكتفاء بابعاده . وكان العامل الحاسم فى ترجيح كفة هذا القرار صوت جمال عبد الناصر الذى كان قد قرأ باستفاضة عن الثـورات السابقة وأيقن أن اراقة الدماء متى بدأت فانها من العسير أن تحقن وكان بعيد النظر عندما تنبأ بأن الحياة التى سيحياها فاروق . حياة الملاهى وأندية الليل لن تشجع في قليل او كثير على التفكير فى اعادة الملكية .

لقد حكم على أسرة محمد على بالموت ميتة حقيرة ولم يكن بذى بال على الاطلاق اذا ما ترك آخر رأس فيها يبعثر الأموال التى ابتزها من شعبه وهربها للخارج ـ يبعثرها فى ملاهى فرنسا وحانات ايطاليا لأن عملا آخر أجدى من محاكمة الماضى كان ينتظر الضباط البواسل.

لقد كان يتحتم الانتصار على الماضى حتى يتسنى بناء مستقبل افضل .

الثورة والعالم الخارجى

تتعرض الامة لثورتين : الاولى ثورة سياسية ·· تسترد فيها حقها فى حكم نفسها بنفسها وتتخلص فيها من الحكام الطغاة أو جيوش الاحتلال · والثانية اجتماعية ·· تكافح فيها طبقات المجتمع ضد بعضها البعض لتحقيق التوازن المنشود وتوفير العــدالة للمواطنين جميعا ·

جمال عبد الناصر

ما من ثورة قامت الا وكان لها تأثير على العالم الخارجى لا يقل عن تأثيرها عن المجتمع التى قامت فيه · وطبيعى أن لكل دولة علاقات خارجية ، ونادرا ما تقوم هذه العلاقات على أساس تكافؤ القوى · وعندما تقوم ثورة فى بلد ما لا بد وأن يتمخض عنها تغيير فى علاقة هذا البلد بالعالم الخــارجى ، كما حدث فى الثورتين الفرنسيــة والروسية ، فقد تغيرت علاقات فرنسا وروسيا فى ظل الأنظمــة الجديدة بالدول الأخرى تغيرا جوهريا ·

لذلك فان من أهم المشاكل التى تواجهها أية ثورة ضرورة تعزيز مركزها الدولى دون المساس بالأهداف والاصلاحات الداخلية التى قامت من أجلها ·

ولما كانت الثورة المصرية التى قامت فى دولة أطلق عليها نابليون « أهم بلد فى العالم » ـ بالنسبة الى موقعها الاستراتيجى الممتاز ـ فقد كان من البديهى أن تثير هذه الثورة رد فعل قوى فى مختلف الدول ·

فى صبيحة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ طرقت الثورة ـ فى شخص قائد الجناح على صبرى ـ باب السفارة البريطانية فى القاهرة ، وما أن استقبله السير وليم سمارت حتى أبلغه تحذير الثورة بأن المسألة

داخلية بحتة ، وأن أى تدخل أجنبى ستعتبره الثورة عملا عدوانيا وستقابله بمنتهى الصرامة والحزم ، ولذا ظلت القوات البريطانية قابعة فى معسكراتها فى منطقة القنال ٠

وكان لا بد للثورة فى أولى مراحلها أن تتوخى جانب الحرص والحذر ، فبعد عزل الملك لم تلغ الملكية فى الحال وانما نصب أحمد فؤاد ملكا على مصر وتم تشكيل مجلس للوصاية بحيث بدا الامر وكأن الثورة عبارة عن انقلاب سياسى يهدف الى التخلص من الملك الفاجر وأعوانه من رجال السياسة الانتهازيين وتطهير البلاد من الخونة والمرتشين ٠

ولكن ٠٠ مرت الأيام لتثبت أن الثورة كانت أعمق من ذلك : ان الثورة التى قامت عى أكتاف الضباط الاحرار (رجال ينتمى معظمهم الى الطبقة المتوسطة ذوو وطنية حقة ومبادىء سامية وحماس جياش) كانت ثورة اصلاح ، فما أن دب الخلاف بين رجال الثورة وحكومة على ماهر حول اصدار قانون الاصلاح الزراعى حتى تولى الضباط الاحرار فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ مقاليد الحكم بأنفسهم ، وفى اليوم التالى أصدروا قانون الاصلاح الزراعى وبدأوا فى تنفيذه فى الحال ٠

وهنا نتسائل ٠٠ لماذا أخذ الجيش على عاتقه الاضطلاع بمهمة الاصلاح هذه ؟ أن أحدا من الأحزاب السياسية أو جماعات الكتاب والمفكرين لم يفكر يوما فى مثل هذه الاصلاحات ٠ كان متوقعا أن تكرس حركة الضباط جهودها لاصلاح الجيش وتقوية مركز مصر العسكرى ، أما أن يقوم أولئك الضباط باصلاحات اجتماعية جوهرية ـ مثل قانون الاصلاح الزراعى ـ فهذا ما لم يتوقعه أحد ٠ ولكن الحقيقة هى أنه كانت هناك بواعث قوية دفعت الضباط الى الاسراع بتنفيذ قانون الاصلاح الزراعى : كان الدافع الاول هو رغبتهم الصادقة فى تحسين حالة الغالبية الفقيرة من الشعب ، وثانيا لكسر شوكة

طبقة الحكام من الرأسماليين أصحاب الاقطاعيات الكبيرة .

ومهما يكن من أمر الدوافع الاخرى التى تكمن وراء هذا الاصلاح فقد كان للقرار الحازم الذى حدد الملكية الزراعية فى مصر بمائتى فدان نفس الاثر الذى أحدثه الهجوم على الباستيل بالنسبة للثورة الفرنسية . لقد أثبت هذا القانون للناس جميعا فى الداخل والخارج أن الثورة انما جاءت للعمل .. العمل الجاد المثمر من أجل رفاهية الشعب .

وفى الحقيقة فان قانون الاصلاح الزراعى هذا يعتبر أول محاولة جدية لمحاربة الفقر بين الفلاحين ورفع مستوى المعيشة فى الريف .. ليس فى مصر فحسب ، بل فى العالم العربى كله، ذلك أن الآمال التى أثارها هذا القانون فى نفوس الفلاحين خارج مصر لم تكن بأقل أهمية من المكاسب التى حققها للفلاح المصرى .

ومع أن بعض الهيئات فى مصر وفى سورية وفى لبنان قد حاولت القيام ببعض المشروعات التى تهدف الى تحسين حالة الفلاحين ورفع مستوى معيشتهم الا أن هذه المشروعات قد واجهت معارضة شديدة من جانب أصحاب الاقطاعيات الكبيرة ولم تستطع حركات الاصلاح الصمود أمام النفوذ الاقطاعى .

وفى العراق كان الاقطاعيون من خلفاء الباشوات الاتراك يحتكرون الاراضى الزراعية ويسيطرون على الجهــاز الحكومى بغرض تحقيق مصالحهم الذاتية . وفى كل مرة كانت تسقط فيها الوزارة كانت تشكل الوزارة الجديدة من كبار رجال الاقطاع ومن أنصار نورى السعيد . الحقيقة أن نورى السعيد هذا دكتاتور من نوع غريب ، ففى كل مرة كان يدخل البرلمان العراقى نواب أحرار يهــدفون الى الاصلاح كان نورى السعيد يحل هذا البرلمان فى الحال ويقوم باجراء انتخابات جديدة . وكانت هذه السياسة تجد تأييدا مطلقا من السفارة

البريطانية ، وهى نفس السياسة التى لجأت الولايات المتحدة الى استخدامها أخيرا فى الاردن : ابعاد العناصر الرامية الى الاصلاح .

لذلك لم يكن غريبا ان تقابل الثورة المصرية بالسخط وعدم الارتياح من جانب طبقات الاقطاعيين وملاك الاراضى فى العراق .

القومية العربية وسياسة عدم الانحياز :

ويبدو أن غيرة نورى السعيد الشخصية من قادة مصر الاكثر منه حيوية ونشاطا قد أفقدته وعيه وأعمته عن التعرف على حقيقة ما قد وصلت اليه العقلية العربية فى هذا الوقت : القومية العربية وسياسة عدم الانحياز .

فقد كتب لى أحد الطلبة فى العراق خطابا يقول فيه : « لقد كانت « القومية العربية » فيما مضى مجرد هتافات خاوية وكلمات جوفاء لا معنى لها الى ان أتى عبد الناصر فجعل منها حقيقة واقعة بحيث أصبحت شيئا يستحق الموت فى سبيله والتضحية من أجله بكل مرتخص وغال » .

ومضى عبد الناصر يحقق رغبة الشعوب العربية فى السلام وعدم التدخل فى النزاع القائم بين الشرق والغرب والتفرغ لحل مشكلاتهم الداخلية . وبينما رفض ناصر اشتراك مصر فى تكوين حلف دفاعى عن منطقة الشرق الاوسط ، على غرار حلف شمال الاطلنطى ، لجأ نورى السعيد الى دول الغرب وانتهت المأساة بتوقيع حلف بغداد فى عام١٩٥٥ . وفى ابريل من نفس العام اشتركت مصر فى مؤتمر باندونج الذى نادى بمبادىء الحياد الايجابى والتعايش السلمى ونبذ سياسة الاحلاف العسكرية . وعند عودته من باندونج استقبل المصريون زعيمهم بأكاليل النصر والغار استقبالا شعبيا حماسيا لم يسبق له مثيل . ومنذ ذلك التاريخ ويتمتع عبد الناصر بولاء العرب جميعا من مراكش الى بغداد .

وقد كتب اثنان من الصحفيين الفرنسيين الذين شاهدوا الاحتفالات التى أقامها الشعب لاستقبال مخلصهم فقالا : اذا ما أوقفنا مائة مصرى لنسألهم عما ستفعله مصر اذا ما نشبت حرب عالمية ثالثة ، أو بمعنى أدق الى أى المعسكرين ستنضم ٠٠ فانا لن نجد خمسة يجيبون « مع الغرب » ولن نجد أكثر من نفس هذا العدد يؤيدون التحالف مع المعسكر الشرقى ، لقد بدأ المصريون يعتنقون مبدأ جديدا : الحياد وعدم الانحياز ٠

الثورة ودول الغرب :

كانت فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الامريكية أكثر دول الغرب تأثرا بقيام الثورة المصرية :

أولا ـ فرنسا :

كانت الفوضى السياسية قد ضربت أطنابها فى الجمهورية الفرنسية ٠ ويبدو أن فساد الحكم وانقسام الرأى بين الاحزاب المختلفة بالاضافة الى هزيمة فرنسا المنكرة فى عام ١٩٤٠ قد أنمت فى نفوس الفرنسيين غريزة الانتقام وحب السيطرة ٠ والمعروف أن مشكلة فرنسا الاولى التى جلبت عليها الهزيمة تلو الاخرى ، هى أنها كانت ـ ولا تزال ـ ترفض الاعتراف بأن المبادىء والافكار والمعتقدات التى ربما تبدو بالنسبة لها غير ذات بال تعتبر أمور حيوية بل ومقدسة فى نظر أصحابها ٠

وبينما كانت فرنسا تتلقى الضربات القاصمة فى حربها مع الهند الصينية كانت مبادىء الثورة المصرية الحرة تبث روح الكفاح والنضال بين القوميين فى مراكش وتونس والجزائر ٠

لذلك لم ترحب فرنسا بقيام الثورة المصرية ، ورأت فيها خطرا يهدد مصالحها الاستعمارية ٠

ثانيا ــ بريطانيا :

أما رد فعل قيام الثورة المصرية فى بريطانيا فقد اتخذ طابعا آخر كانت العلاقة بين بريطانيا ومصر محصورة فىمسألتين أساسيتين: السودان ·· وقاعدة السويس · ومنذ البداية أظهرت حكومة الثورة عن استعدادها الطيب للعمل الجاد فى سبيل الوصـــــول الى حلول نهائية بشأن هاتين المشكلتين · وكان أن انتهت المشكلة الاولى باعلان السودان دولة مستقلة ذات سيادة تستطيع كل من مصر وبريطانيا انشاء علاقاتها الخاصة معها على حد سواء ·

أما مسألة السويس فكانت أكثر حساســـية : ذلك أن حكومة الثورة التى قامت على أسس من الوطنية الحقة لم تكن لتسمح أبدا باستمرار احتلال القوات البريطانية لشبر واحد من الارض المصرية ، ولكن بريطانيا كانت ترى أن حياة الامبراطورية بأكملها تتوقف الى حد كبير على قناة السويس ، فعن طريقها كانت تمر السفن الحربية والبواخر التجارية تنقلالجنود والبضائع من والىمستعمراتها والدول التابعة للكومنولث فى الشرق · لذلك كانت فكرة الجلاء عن قاعدة السويس بالنسبة لبريطانيا أشد ايلاما من ترك جزيرة وايت نفسها (احدى الجزر البريطانية) ·

ولكن أمام إصرار المصريين من جانب ، وبعد أن عرفت بريطانيا أنه من العبث الاحتفاظ بقاعدة عسكرية فى منطقة مكتظة بالسكانالذين يناصبون قواتها كل بغض وكراهية ، رضخت بريطانيا للامر الواقع وأسقط فى يدها وتم توقيع اتفاقيـــة الجلاء بين السير أنتونى ايدن وحكومة الثورة فى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٤ ·

ثالثا ــ الولايات المتحدة الامريكية :

يبدو أنه كان للولايات المتحدة الامريكية من الاسباب ما يدعوها الى الترحيب بقيام الثورة المصرية أكثر مما رحبت بها أى دولة غربية

أخرى : ذلك أن الحكومة الجديدة قد تمكنت من حفظ النظام ومنع انتشار القلاقل والاضطرابات كما أنها حالت دون تكوين حزب شيوعى . هذا بالاضافة الى المشروعات الاصلاحية الضخمة التى لم تترك مجالا لادعاءات العناصر المتطرفة أو الرجعية .

لم تتوقف اصلاحات الثورة عند حد المشروعات الزراعية فحسب، ذلك أن عبد الناصر كان قد أيقن منذ البداية أنه مهما أدخلت التحسينات على وسائل الزراعة ، ومهما قسمت المقاطعات الكبيرة ووزعت على صغار الفلاحين فان هذا لن يكفى للقضاء على الفقر وتحقيق رفاهية الشعب . وعرف عبد الناصر أيضا بأن المشكلة ترجع فى أساسها الى هذه الحقيقة الهامة : زيادة مضطردة فى عدد السكان .. لا يقابلها زيادة فى مساحة الاراضى المنزرعة ، فبينما بلغت مساحة الاراضى الزراعية فى مصر عام ١٩٠٠ خمسة ملايين فدانا ، وبالكاد أمكن زيادتها مليونا آخر من الافدنة فى مدى خمسين عاما ، ازداد عدد السكان فى نفس هذه الفترة بما يناهز عشرة ملايين مواطن ... معنى هذا أن نصيب الفرد من الاراضى الزراعية فى انخفاض مستمر ، لذلك رأى عبد الناصر أن لا سبيل الى التغلب على هذه المشكلة الملحة الا بالتصنيع .

حقيقة أنه لم تكن لدى المصريين خبرات كافية بالصناعة ، ولكن عبد الناصر كان يعرف أنه أينما وجدت الرغبة ، وجد الطريق . ورأى أن مصر غنية بموارد الحديد عند أسوان والمنجنيز فى سيناء ، ومعادن أخرى كثيرة فى صحراواتها الشاسعة .

وكان مشروع اقامة السد العالى جنوبى أسوان من أهم المشروعات التى اهتمت بها حكومة الثورة فى سياستها الاصلاحية الجديدة ، فبالاضافة الى أن هذا المشروع سيضمن توفير المياه اللازمة لرى جميع الاراضى الزراعية فى مصر ريا دائما فانه سيؤدى الى زيادة مساحة هذه الاراضى بمليونين آخرين من الافدنة . كما أن التربينات الضخمة

التى ستعمل بقوة تدفق المياه عند أسوان ستولد قوة كهربائية كبيرة يمكن استغلالها فى الاغراض الصناعية .

وكان بديهيا أن يؤدى مثل هـذا المشروع الى زيادة المحصول الرئيسى فى مصر (القطن) زيادة كبيرة - الامر الذى رأى فيه كبار أصحاب مزارع القطن فى الولايات المتحدة خطرا يهدد مصالحهم فراحوا يبذلون المساعى لحمل حكومتهم على رفض تمويل المشروع .

وثمة عامل آخر كان له أكبر الاثر فى تخلى الولايات المتحـدة عن تمويل مشروع السد العالى : ذلك العامل هو اسرائيل وأنصارها فى الولايات المتحدة . « لقد دأبت الصهيونية العالمية تبذل الجهود لحماية مصالح اسرائيل ومحاربة كل فكرة لتقديم أية مساعدات للدول العربية من شأنها الاضرار بمركز اليهود فى فلسطين .

اسرائيل :

ومما لا شك فيه أن اسرائيل التى كانت ترى من مصلحتها أن يظل العرب على ضعفهم وانقسامهم قد تأثرت الى حد كبير بقيام الثورة المصرية .

وحاولت اسرائيل مرارا عقد معاهدة للصلح مع العرب ، بيد أنه كان من الطبيعى أن ترفض مصر ، وقد تولى أمرها حكومة عسكرية وطنية ، عقد مثل هذه المعاهدة مع دولة تحتل ٧٥ ٪ من أراضى فلسطين دون وجه حق ، وتمانع فى اعادة اللاجئين العرب الى ديارهم متحدية بذلك قرارات الامم المتحدة .

ومما زاد الطين بلة أن اسرائيل قد اتخذت منذ البداية موقفا عدائيا متطرفا حيال العرب ، ولم تجد نصائح المعتدلين من قادة اليهود - أمثال جودا ما جنيس وموشى شاريت - وتركزت السلطة كلها فى يد رجل واحد لا يعترف الا بسياسة العنف والبطش .. ذلك هو دافيد بن جوريون الذى غالى فى تشجيعه لاغارات اليهود على الآمنين

من العرب العزل ... تلك الاغارات التى مرغت بسمعة اسرائيل فى الوحل وحطمت ادعاءات اليهود الكاذبة كمجتمع محب للسلام . وفى فبراير سنة ١٩٥٥ شنت اسرائيل أعنف هجوم لها على قطاع غزة ودمرت مدافع طائراتها مبنى مستشفى غزة ومركز البوليس . وقد ذهب ضحية هذا العدوان أكثر من أربعين عربيا .

بيد أن هذه الغارة قد أثبتت للمصريين جميعا ، وللرئيس جمال عبد الناصر بصفة خاصة ، ضرورة حصول مصر على الاسلحة لحماية حدودها والدفاع عن نفسها ضد كل معتد أثيم . ولكن الولايات المتحدة وبريطانيا رفضتا تزويد مصر بالسلاح .. وكان أن لجأ عبد الناصر الى شرائه من تشيكوسلوفاكيا .

وبالنسبة للعرب جميعا تعتبر اسرائيل « دولة » دخيلة تنوى التوسع والعدوان وتعد العدة لغزو أراضيهم ، خاصة وأن بن جوريون لم يخف نواياه الاستعمارية ومضى يعلن مرارا وتكرارا رغبته فى زيادة عدد اليهود المهاجرين الى اسرائيل الى أربعة ملايين نسمة . ولما كان العرب يعرفون فلسطين حق المعرفة .. بقلة مواردها من معادن أو وقود أو قوى محركة أو أراضى زراعية ، فقد باتوا يتساءلون : ترى كيف يمكن لهذا العدد الضخم من اليهود أن يعيشوا فى مثل هذه المنطقة خاصة بعد أن تنتهى التعويضات الالمانية،وعندما يبلغ الارهاق بالامريكيين مداه وتتوقف الولايات المتحدة عن ارسال الاعانات المالية اليها ؟! .. ان خضراوات النقب وبرتقال السهل الساحلى لا يمكن أن تكفل الحياة لعدد كبير كهذا ...

لقد كان أجدى باسرائيل أن تحاول التقرب من العرب وان تنتهج سياسة أكثر اعتدالا من تلك السياسة العدوانية التى أتبعتها والتى أقنعت العرب ــ حملة بعد أخرى ــ أنهم ما لم يقاوموا بنفس العنف لأصبحت اسرائيل هذه خطرا يهدد أمنهم وسلامتهم . وزاد من اقتناع العرب بهذه الفكرة تلك التصريحات الجنونية التى كان يدلى بها مناحم بيجن القائد الارهابى وزعيم حزب حيروت الاسرائيلى .

حرب السويس :

في هذا الجو المضطرب الرهيب ، والخضم الذى تتلاطم فيه أمواج المصالح المتعارضة ، الحقيقى منها والزائف نشبت حرب السويس : كانت فرنسا تأمل الانتقام لهزائمها المتكررة فى الجزائر ، ولذا فقد كانت على أتم استعداد للاشتراك مع اسرائيل فى شن حملة شعواء على أكبر الدول العربية فى ذلك الوقت .. مصر . وبريطانيا .. أزعجها تأميم عبد الناصر لقناة السويس فراحت هى الاخرى تبغى الانتقام .. أما اسرائيل فكانت تهدف الى احتلال منطقة غزة وصحراء سيناء واجبار العرب على قبول معاهدة الصلح ..

لقد كتب الكثير عن حرب السويس .. وسيكتب عنها ثانية ، ولا أقل من مجلد كبير يمكن أن يوفى هذا الحدث حقه . وفى الواقع فقد كانت هذه الحرب فريدة فى نوعها .. غريبة فى بدايتها ، وغريبة أيضا فى نهايتها التى جاءت على أثر الانذار الروسى الشهير ، ذلك الانذار الذى هدد بأن الاتحاد السوفييتى سيتخذ لندن وباريس هدفا لقنابله الصاروخية العابرة للقارات ، تماما كما كانت بورسعيد هدفا لقنابل البريطانيين والفرنسيين واليهود .

واذا كان هناك من النقاد من يرى فى تسليم مصر شبه جزيرة سيناء للقوات الاسرائيلية دليلا على الضعف والوهن ، الا أنه يمكن الرد على ذلك بأن قادة الجيش فى مصر قد عرفوا منذ البداية أنهم لا يحاربون عدوا واحدا ، بل انهم يواجهون ثلاثة جيوش فى وقت واحد ، وفى نفس الوقت كانت أساطيل بريطانيا وفرنسا تحتشد شمالى السواحل المصرية . وفطنت القيادة العليا للقوات المسلحة فى مصر الى أن رد العدوان الاسرائيلى فى سيناء هو الهدف الاكبر الذى يصبو اليــه المعتدون : ذلك أن مقاومة التقدم الاسرائيلى كان يتطلب ارسال معدات وجنود أكثر ، ومعنى هذا وضع جزء كبير من العتاد والجنود المصريين فى مكان يمكن محاصرتهم فيه من جميع الجهات وابادتهم عن آخرهم . لكن قادة مصر المحنكين قد تيقظوا لهذه الخدعة وفضلوا الانسحاب من سيناء مضحين بأقل خسائر ممكنة .

ومع أن سكان بورسعيد هم جميعا من الاهالى المدنيين ، ومع أنها مدينة مفتوحة لا تتمتع بموقع استراتيجى دفاعى ممتاز ، ومع أنه لا يصل بينها وبين بقية أجزاء القطر المصرى سوى طريق واحد ، ومع أن قوات الجيش كانت قد اتخذت أماكنها فى مواقع أخرى ·· غير بورسعيد — مع كل هذا فقد صمدت بورسعيد طويلا أمام قنابل الاعداء ومدافعهم الثقيلة ، ولم تخضع أو تستسلم فضربت بذلك مثلا رائعا من أمثلة البطولة والكفاح · وكان أن خرجت المدينة عن بكرة أبيها رجال ونساء وأطفال يستبسلون فى الدفاع عن مدينتهم · وانتشرت روح المقاومة بين المصريين جميعا حتى ان حكومة الثورة — الواثقة من شعبها ، قد وزعت آلاف البنادق على المواطنين فى كل مكان ·

وانتهت الحرب ·· وخذلت القوات الثلاث ·· ومنيت فرنسا وبريطانيا واسرائيل بفشل ذريع · أما الثورة فقد خرجت من هذه التجربة أقوى مما كانت وأكثر سلامة وأمنا · وقد كتب أنور السادات فى هذه الاثناء يقول : لم أشعر أبدا بقوة ثورتنا كما شعرت بقوتها عند الهجوم على بورسعيد · لقد أثبتت حرب السويس أن مبادىء الثورة قد امتزجت تماما بدماء المصريين جميعا ··· لقد أبينا على أنفسنا أن نستسلم وكافحنا كفاحا مجيدا ضد جيوش ثلاث ··· هذا هو ردنا على دنشواى ·· بعد خمسين عاما ·

وانه لمما يجدر الاشادة به فى هذا المجال ذلك الاتجاه السلمى الذى اتخذه شعب مصر حيال الرعايا الاجانب ، فما من أحد من رعايا بريطانيا وفرنسا المقيمين فى مصر قد أصابه مكروه أو أذى ، كما لم تمس ممتلكاتهم أيضا بسوء · هذا العمل النبيل فى زمن سادت فيه الشرور والآثام ، وامتلأ بأعمال العنف والقسوة والوحشية يعتبر من أهم الامور التى تميز الثورة المصرية عن غيرها من الثورات · لقد استطاع الشعب الذى اعتقد كرومر أنه لا يزال بعد فى أسفل سلم التطور الانسانى ، أن يلقن درسا فى الاخلاق لأكثر الشعوب تقدما فى أوربا ·

مصر ٠٠ والناصر

لا يرى المسافر بالجو ما قد طرأ على مصر الحديثة من تغيرات ٠٠ فها هي بورسعيد كما هي وكأن لم يمسسها أحد ، ولا زالت قناة السويس أيضا على حالتها ٠٠ ممر مائى هادىء تقطعه البواخر جيئة وذهابا ٠ وها هي القوارب الصغيرة تسبح فى بحيرة المنزلة كقطع من الفضة تدفعها رياح غير منظورة ٠ ثم هناك أرض الدلتا الخضراء التى يتمتع كل شبر فيها بدرجة كبيرة من الخصوبة والحياة ٠٠٠ ويجاور هذه الخضرة اليانعة صحراء صفراء مترامية الأطراف ٠ بيد أنها ليست ككل الصحراوات : مجرد مسطحات مستوية من الاراضى تغطيها حبات من الرمال ، بل أنها صحراء تتموج بكثبان مرتفعة صقلت الرياح هاماتها فصارت تتلألأ فى وهج الشمس تماما كما لو كانت نصال سيوف لامعة ٠

ولكن ما أن يهبط القادم أرض المطار وتقله السيارة الى شوارع القاهرة الفسيحة وطرقها الممهدة النظيفة ، حتى يشعر المرء بالتغيرات الشاملة والتعديلات الجوهرية بين مصر قبل وبعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ٠ وفى ميدان المحطة يقف تمثال رمسيس العظيم رافعا هامته الى السماء يتطلع الى المستقبل مسرعا فى خطاه الى الامام ٠٠ قدم تتقدم أخرى ٠

وبينما أنا أجلس ذات يوم فى شرفة الفندق المطل على نهر النيل العظيم أرقب المارة يعبرون الطريق ، والقوارب ترقص بأشرعتها الكبيرة فوق صفحة الماء الهادىء ، مرت بمخيلتى صورة الارض الخضراء ، والوادى الخصيب الذى يمتد من أسوان الى البحر المتوسط ٠٠٠ ستة ملايين فدان من أجود الاراضى الزراعية فى العالم طالما كانت هدفا للغزاة الطامعين ، من أجلها تسابقت قوى الاستعمار الى احتلال أرض مصر ينهبون الخيرات ويستعبدون الاهالى ٠٠ ويسفكون الدماء ٠

وتلك أيضا هي الارض التى ارتبطت بها حياة الملايين من الفلاحين ، يزرعونها ليتمتع غيرهم بالثمار !

ترى ماذا فعلت ثورة ٢٣ يوليو من أجل أولئـــك الفلاحين ؟ اذا كانت الثورة قد أصلحت من تلك الاوضاع ، اذن فهى ثورة عادلة تستحق كل تقدير واعجاب :

الاصلاح الزراعي :

تشغل وزارة الاصلاح الزراعي جناحا فى قصر عابدين الذى يفوق قصر بكنجهام فى ضخامته وروعة بناءه • وعندما هيئت لى فرصـــة مقابلة الدكتور سيد مرعى ، وزير الاصـــلاح الزراعى ، ابتدرته بقولى :

ـ ألم يسبق التفكير فى الاصلاح الزراعى من قبل ثورة يوليـو سنة ١٩٥٢ ؟

ـ لا شك أن مشكلة الاراضى الزراعية كانت من أهم المشـكلات التى تواجه مجتمعنا المصرى منذ فترة طويلة • وكان النفوذ الاقطاعى كان من القوة بحيث لم تفلح محاولات الاصلاح وباءت جميعها بالفشل • وفى عام ١٩٤٥ اقترح السيد محمد خطاب ـ أحد أعضـــاء مجلس الشيوخ فى ذلك الوقت ـ اصدار قانون بتحديد الملكية الزراعية •

ـ وما هو الحد الاعلى الذى اقترحه السيد خطاب ؟

ـ خمسون فدانا •• أى ربع ما حدده قانون الثورة •

ولكن هذا الاقتراح لم يلق أى تأييد فى البرلمان لأن أغلب أعضائه كانوا من كبار رجال الاقطاع •

وهنا تذكرت العراق بمجالسها النيابية التى تسـيطر عليهــا الرأسمالية وأصحاب المقاطعات الكبيرة الذين طالما عارضوا بكل شدة وصرامة كل حـــركة تستهدف اســتقطاع أى جــزء من أراضيهم

والغريب أن أولئك الاقطاعيين من أصحاب الملايين كانوا يسرفون فى اقامة المآدب والحفلات لضيوفهم وأصدقاءهم من الاجانب بينما يتعنتون فى معاملتهم مع الفلاحين الذين يزرعون لهم الارض ويبخلون عليهم بالقروش القليلة .

وقبل أن يسألنى الوزير فيم أفكر بادرته أنا بسؤالى :

ـ ولكن ماذا كانت حقيقة المشكلة بالنسبة لمصر ؟

فأجابنى سيادته :

ـ كان أقل من ١ر٠ ٪ من أصحاب الاراضى يمتلكون أكثر من ٢٠٪ من مجموع الاراضى الزراعية فى البلاد ـ الامر الذى يسر لهم السيطرة على الحكم عن طريق البرلمان ... ليس هذا فحسب بل ان ملكية الاراضى أصبحت هى وسيلة الثراء ورمز القوة ولذلك أخذ أصحاب رءوس الاموال يتسابقون فى استثمار أموالهم فى الاراضى .. وأهملت المشروعات الصناعية . وارتفعت قيمة الاراضى الزراعية بشكل ينذر بالخطر ، كما ارتفعت أيضا تبعا لذلك قيمة الايجارات التى يطلبها الملاك من المستأجرين .

ـ لا بد أنه قد سرت بين الفلاحين رغبة فى امتلاك الاراضى . وليس فقط أن يستأجرونها ثم يزرعونها لحساب غيرهم ؟

ـ فعلا لقد كانت هذه هى رغبتهم ... أن يصبحوا ملاكا .. مهما تكن المساحات التى يمتلكونها صغيرة . ولكن كانت لنا نحن أيضا ـ أقصد الحكومة ـ رغباتنا : فقد كان هدفنا دائما وأبدا هو زيادة الانتاج وتحسين نوع المحصولات . وعندما شرعنا فى تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى قال البعض : انه قانون عادل ما فى ذلك شك .. ولكن الخوف هو أن يؤدى تقسيم الاراضى الى نقص فى الانتاج القومى . ولكننا ـ حرصا منا على حماية مستوى الانتاج ـ

قمنا بتنظيم الجمعيات التعاونيـــة فى المناطق التى شـــملها قانون الاصـــلاح الزراعى وذلك لمســاعدة صغار الملاك فى زراعة أراضيهم بأحسن الطرق وأسلمها ، ثم لمعاونتهم بعد ذلك فى بيع المحصولات ٠ ولكن هذا لا يعنى أننا قد قيدنا حريتهم أو أننا قد فرضنا عليهم بيع المحصولات عن طريق الجمعيات التعاونية ٠٠٠ بل على العكس من ذلك تماما تركنا لهم حرية اختيار من يبيعون لهم تلك المحصولات ، فهم يستطيعون بيعها فى السوق الحرة مباشرة ، أو عن طريق الجمعيات التعاونية اذ أرادوا ٠ وفى العام الاول باع الفـــلاحون عن طريق الجمعيات التعاونية تسعة آلاف قنطار فقط من القطن ٠ ولكن بعد أن تأكدوا من أن الجمعيات التعاونية تقدم لهم أثمانا أفضل من تلك التى يقدمها لهم التجار فى السوق الحرة بلغت مبيعات القطن عن طريق الجمعيات التعاونية هذا العام (١٩٥٧) ما يزيد عن ٣٥٠ ألف قنطار ٠

ـ وكم عدد المنتفعين بقانون الاصلاح الزراعى ؟

ـ مائتى ألف أسرة ، أى ما يربو عن مليون مواطن ٠

ـ هل يقتصر القانون على تحديد الملكية الزراعية ، وتقسيم الاراضى على صغار المزارعين ؟

ـ لا ٠٠ فقد شمل القانون تفاصيل أخرى كثيرة أهمها تحديد ثمن الاراضى الزراعية وتحديد قيمة الايجارات بحيث لا تتعدى سبعة أمثال الضريبة ٠ وقـد أدى هذا النص الاخـــير الى تخفيض قيمة الايجارات الى النصف تقريبا ـ الامر الذى يستفيد منه الآن أكثر من ١٤ مليونا من المواطنين (عائلات الفلاحين الذين يستأجرون ٠٠ ولا يملكون) ٠

ومع أنه قد سبق لى قراءة الكثير من الأرقام والحقائق عن الاصلاح الزراعى فى مصر ـ سواء فى نشرات المصريين أنفسهم أو فى كتـــاب

دورين وارنر « الاصلاح الزراعي وتطوره فى الشرق الاوسط » ، الا أن هذه الاعداد وتلك الاحصائيات لم تعدو أن تكون — فى نظرى — أشجارا بلا أوراق ، ولذلك رأيت أن أشاهد بنفسى مدى التقدم الذى أحرزه قانون الاصلاح الزراعى فى مصر • وعندما سألنى سيادة الوزير عن أى المناطق أفضل زيارتها أجبته بقولى :

— اذا كان الامر ممكنا ، فاننى أفضل احدى مزارع الاسرة المالكة (سابقا) •

— هل تذكر منطقة بالتحديد ؟

ولما كنت قد سمعت عن منطقة يدعونها المرج ، وهى تلك التى أطلق فيها التاجر الأوروبى رصاص بندقيته على الفلاح المصرى عندما أراد أن يروى زراعته قلت لسيادة الوزير ••

— المرج •• هل تأثرت هذه المنطقة بقانون الاصلاح الزراعى ؟

— نعم •• وبها الآن أكبر مزرعة للدواجن فى الشرق الاوسط ولحسن الحظ أنها لا تبعد كثيرا عن القاهرة •

فى المرج :

وفى المرج قصدنا المركز الاقليمى للاصلاح الزراعى ، وهو يحتل قصر الاميرة السابقة نعمت مختار ، أخت الملك فؤاد وكريمة الخديو المسرف اسماعيل • ثم قمنا بجولة فى هذه البلدة الريفية الهادئة التى يكسو أرضها بساط أخضر جميل وحيث تتناثر هنا وهناك بعض أشجار « السنط » و « الكازوارينا » • ومع أن الشمس كانت تسطع فوق رؤوسنا وسط السماء كان الجو لطيفا ، ولم تشعرنا رطوبة الارض بحرارة الشمس • وككل قرية وكل بلدة وكل مدينة فى وادى النيل الخصيب ، كانت المرج تعج بالحركة والنشاط والحيوية : فها هم الفلاحين فى كل مكان يتنقلون فى خفة ونشاط

.. وهناك أيضا بط .. وماشـــية .. وعربات . واذ بى ألمح فى الطريق رجلا مسنا هزه العمر يرتدى عمامة بيضاء يمر من أمامنا ، فسألت رفيقى عما اذا كان فى استطاعتى أن أتحدث معه .

ـ طبعا .. هذا ممكن .

وعندما اقترب من ذلك الرجل العجوز سألته عن اسمه ، فأجابنى فى ثقة وشجاعة : « اسمى حسين ابراهيم طوهان » .

وكان ان دار بينى وبينه هذا الحديث :

ـ هل تعمل هنا .. فى هذه البلدة ؟

ـ نعم .. ولقد انتخبنى زملائى الفلاحون لتمثيلهم فى الجمعية التعاونية .

ـ هل لك أولاد ؟

ـ ولدان ، وبنتان ، تزوجت احداهما وأنجبت لى حفيـدا ، أما الثانية ، فلا زالت بالمنزل تقوم بمساعدة زوجتى .

كم كنت تكسب قبل الاصلاح ؟

وهنا تغيرت نبرات صوته وهو يجيب على هذا السؤال بقوله :

ـ لقد كان من المستحيل أن أستأجر حتى نصف فدان قبل الاصلاح، أما الآن فاننى أمتلك ثلاثة أفدنة . لقد كنا نعمل أجراء .. عبيدا .. باليومية .. سـبعة قروش فى اليوم على الاكثر . واذا انتابنى مرض فانهم لا يعرفوننى ولا يدفعون شيئا .. هل تصدق أننى لم أشاهد الاميرة طيلة حياتى ؟.. لقد كنا بالنسبة لها تماما كالارض بالنسبة للسماء .. انها كانت تأبى حتى أن تنظر الينا من شـباك القصر ..!

ــ ولكن هل تشعر باختلاف بين حياتك فى الماضى ، وحيـــاتك الآن ؟

ــ وأى اختلاف يا سيدى ٠٠ اننا الآن لا نضرب ٠٠ ولا نسخر ٠٠ ولا نموت جوعا ٠ لقد مضى زمن كنانشعر فيه أننا والحيوان سواء بسواء ٠ أما الآن فقد اعترفت الامة كلها بالفلاح كدعامة قوية من دعائم المجتمع ، ولم أعد بعد ذلك الـكلب الحقير الممتهن كما كان يعتبرنى الامراء ٠٠ لقد أصبحت رجلا له كرامته ٠٠ أمتلك أرضا ٠

توجهنا بعد ذلك لزيارة مركز تربية الماشية حيث تقوم الجمعيــة التعاونية بتسمينها وبيعها للفلاحين بأسعار معقولة وبتســـهيلات كبيرة فى الدفع ٠ ثم شاهدت أيضا معمل التفريخ الضخم الذى يقوم بتفريخ ٤٥ ألف بيضة من نوع « رود آيلاند » الحمراء كل ٢١ يوما ٠

وفى الحقيقة فان الجمعيات التعاونية تقوم الآن بتأدية خدمات جليلة للفلاح المصرى : فالى جانب معامل التفريخ ومراكز تربيـــة الماشية ، تقوم الجمعيات التعاونية بتزويد الفلاحين بأحسن التقاوى الصـــالحة للزراعة وأجود أنواع الســـماد اللازمة لكل نوع من المزروعات كما أنها توجه اليهم النصح والارشاد بخصوص مواعيــد وطرق الزراعة وتساعدهم فى حل مشكلاتهم بطريقة عملية منظمة ٠

وفى كفر دميرة ٠٠

وفى كفر دميرة كان أحد الامراء السابقين يمتلك بمفرده ١٢٠٠٠ قدانا من أخصب الاراضى الزراعية فى مصر وأكثرها انتاجا ، وقــد تم توزيع هذه الاراضى على ٣٢٠٠ أسرة يبلغ عدد أفرادها ١٥٠٠٠ نسمة تقريبا ٠ وهناك تم تكوين جمعية تعاونية كبيرة لخدمة الفلاحين فى هذه المنطقة ٠ وتشمل هذه المنطقة فى الواقع تسع قرى صغيرة وتقوم كل قرية بانتخاب مندوب عنها لحضور جلسات الجمعية ٠

وبناء على طلبى سمح لى بحضور احدى هذه الجلسات • وكانت المشكلة المعروضة للبحث فى هذه الجلسة تكوين لجنـــة تقوم بجمع اللبن من الفلاحين لبيعه عن طريق الجمعية • ولأول وهلة شعرت بموجة من الفرح تغمرنى وأنا أجلس وسط أولئك القوم الذين تنتفض عروقهم بالحيوية والنشاط ، والذين تبـــدو على وجوههم سمات البساطة والود والاخاء • والحقيـقة ان مناقشتهم فى ذلك اليوم قد دارت فى جو تسوده روح الديموقراطية الحقة والتفاهم الصادق •

وبعد انتهاء الجلسة رأيت أن أوجه بعض الاسئلة الى أعضاء الجمعية من الفلاحين :

— ماذا كانت علاقتكم بالامير قبل تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى؟

— لقد كنا كالكلاب بالنسبة له •

— هل كنتم تتعاملون معه مباشرة ؟

— لم نذكر أننا قد شاهدناه مرة واحدة • فقد كانت كل معاملاتنا مع نظار الدائرة •

— وكيف كانت حياتكم فى ذلك الوقت ؟

— لا تدعوها حياة •• لقد كنا أقرب الى الموت منا الى الحياة •• أما الآن فقد عرفنا معنى الحياة •• الحياة الحرة الكريمة

هذا وقد أدى تكوين الجمعيات التعاونية ، بالاضـــافة الى الثقة المتبادلة التى أخذت تنمو بين الفلاحين والسلطات الى امكان الوصول الى حل عملى سليم بشأن مشكلة هامة أخرى ••• مشكلة الملكيات الصغيرة :

انه من الامور الطيبة حقا أن يمنح الفـــلاحون قطعا من الاراضى الزراعية تتراوح مساحة كل منها بين فدانين وخمسة أفدنة •• ولكن

ترى ما الذى سيحدث فى الأجيال القادمة عندما يموت الفــلاح وتقسم التركة بالتساوى بين الابناء (بحيث تنال الأنثى نصف مــا يناله الذكر) ؟ ان مثل هذا العمل سيؤدى حتما الى تقسيم الاراضى الى أجزاء صغيرة جدا يصعب زراعتها ، وتؤثر فى اضعاف الانتــاج القومى ٠

مما لا شك فيه أن مثل هذه المشكلة يمكن ايجاد حل لها فى الأمد الطويل عن طريق توفير أعمال أخرى لأبناء الفــلاح بحيث تورث الارض كلها الى الابن الاكبر مثلا بينما يوجه الآخرون للعمــل فى الصناعة أو الجيش أو البوليس ٠٠٠ الخ ٠

ولكن ما الذى كان يمكن عمله وقد أصبحت الحاجة ماسة ،وهناك كثير من المناطق أصبحت فيها مشكلة الملكيات الصغيرة هذه حقيقة واقعة ؟؟

وتتضح هذه المشكلة بصورة جليـــة فى بلدة نوى حيث تكثر الملكيات الصغيرة بشكل يثير الدهشة ٠٠ ذلك انها لا تزيدمساحتها فى بعض الاماكن عن مســاحة ملاعب التنس !! وطبيعى أن هـــذه المساحات الضيقة لم تكن لتعود بالنفع على أصحابها ، كما أنهـــا غدت شيئا غير مرغوب فيه من الناحية الاجتماعية والاقتصادية على السواء : ذلك أنه عندما يقوم كل فلاح ــ على حدة ــ بحرث أرضه الصغيرة واعدادها للزراعة وريها فان ذلك العمل سيؤدى الى ضياع كمية كبيرة من المياه أكثر مما يجب ٠ هذا بالاضافة الى أن كل فلاح يقوم غالبا بزراعة ثلاثة محاصيل : القطن لارتفاع ثمنه ، والقمح أو الذرة لأنه هو غذاؤه الرئيسى ، ثم البرسيم لاطعام ماشيته ٠ هـــذا التقسيم الضيق للاراضى ، الى جانب رغبةالفلاح فى زراعةالمحصولات الثلاث ، يجعل استعمال المياه والمخصبات بطريقة ســليمة معقولة أمرا مستحيلا ، ذلك أن هناك من المزروعات ما يحتاج الى كميــات كبيرة من المياه بعكس بعض الزراعات الاخـــرى ، كما ان السماد

الأمثل لنوع معين من النبات ربما يضر بنبـــات آخر ، كذلك فان المبيدات الحشرية اللازمة لمقاومة آفات القطن مثـــلا تضر بالقمـــح والبرسيم ضررا بالغا ٠

ورأى المسئولون فى القاهرة أن مسألة الملكيات الصغيرة هذه من أكبر المشكلات التى تواجه الانتاج الزراعى فى مصر سواء من ناحية الكم أو الكيف ٠ ولم تكن المشكلة مشكلة نوى وحــدها ، بل هى الحال فى كثير من القرى والمناطق الاخرى ٠ ولكن وقع الاختيار على منطقة نوى لاجراء التجارب ، وفعلا قسمت المنطقة الى ١٢ حقلا كبيرا يبلغ مساحة كل منها ١٢٠ فدانا (دون المساس بالملكية الفردية) وقامت الجمعيات التعاونية بالاشراف على زراعة هذه الحقول الكبيرة ٠ وكانت النتيجة أن ازداد انتاج هذه الاراضى ، وازداد نصيب كل فلاح تبعا لذلك زيادة محسوسة ، ومن المعترف به أنه اذا ما طبق مثل هذا النظام على سائر الاراضى الزراعية فى مصر لازداد الانتاج الزراعى بما لا يقل عن ٢٠٪ من الانتاج الحالى - تماما كما لو ازدادت مساحة الاراضى المنزرعة مليونا آخر من الافدنة ٠

السد العالى :

هذا وسيكون تنفيذ مشروع السد العالى هو العامل الفعـــال فى اضطراد زيادة الانتاج القومى الى حده الأقصى ، ذلك أن كميـــات المياه الضخمة التى سيحتجزها السد جنوبى أسوان ستمكن البلاد من زراعة مليونين آخرين من الأفدنة وتغيير نظام رى الحياض المعمول به فى مصر العليا الى نظام الرى الدائم ٠ وحتى فى السنوات التى يكون فيها الفيضان منخفضا ستجد المزروعات دائما الميـــاه اللازمة لنمائها واستكمال نضوجها ٠ ومن الآثار الهامة التى ستترتب على انشاء السد العالى انخفاض مستوى المياه الجوفية وتنظيم عمليـــات الصرف ، ومن فوائده الاقتصادية المباشرة أنه سيوفر للبلاد عشرات الالوف من الجنيهات التى تنفقها الدولة كل عام فى تقوية جســـور

النيل لمواجهة خطر الفيضانات • وحيث أنه سيمكن التحكم فيايراد النهر بصفة مستمرة ، سيؤدى ذلك الى زراعة سبعمائة ألف فدان من الأرز سنويا •• أما الآن فان مساحة الاراضى التى يسمح بزراعتها أرزا تتغير من عام الى آخر حسب كمية مياه الفيضان •ومن ناحية أخرى فان تنفيذ مشروع السد العالى سينتج عنه توليد قوة كهربائية ضخمة يمكن استخدامها فى تشغيل محطات الصرف والرى ، كما أنها ستستخدم أيضا فى الاغراض الصناعية كما هو الحال فى مصنع السماد الذى يجرى انشاؤه الآن بالقرب منأسوان

ربما يعترض بعض النقاد ويقولون أن السد العالى يتطلب نفقات باهظة : ولكن الحقيقة هى أن تكاليف انشاء هذا المشروع تعتبر أقل بكثير من التكاليف التى يتطلبها اقامة مشروعات أخرى يمكن لهذا السد أن يحل محلها جميعا ، ذلك أن هذا المشروع العظيم سيؤدى الى الاستغناء عن الكثير من المشروعات الصغيرة مثل مشروع وادى الريان جنوبى الفيوم ومشروع سد مروة • والمعروف أن الخبراء الجيولوجيون قد انتقدوا مشروع وادى الريان وقالوا بأن تسرب المياه ربما يؤدى الى الاضرار بالاراضى الزراعية فى مديرية الفيوم • أما سد مروة فهو يعجز عن تخزين المياه الكافية لسد حاجة البلاد فى سنوات الجفاف لانه يقوم على أساسالتخزين السنوى أما السد العالى فهو يقوم على أساس التخزين القرنى الذى يضمنتوفير المياه اللازمة للزراعة ، حتى فى أكثر السنوات جفافا •

حقيقة أن السد العالى سيؤدى الى الاستفادة بكلشبر من الاراضى الزراعية فى وادى النيل الخصيب • ولكن الشعب المصرى قد أيقن _ كما سبق أن أوضحنا _ بأن الزراعة وحدها لا يمكن أن تحقق له كل ما يصبو اليه من تقدم ورخاء •

وفي الواقع هناك الآن طريقان (١) آخران يمكن بواسطتهما الوصول بالشعب المصرى الى درجة كبيرة من الرقي والنهوض ٠

أما الطريق الاول فهو الصناعة : استغلال المناجم الموجودة فى الصحراء لانتاج السلع التى تحتاج اليها البلاد من جهة والتى يمكن تصديرها أو استبدالها بمنتجات الدول الاخرى من جهة أخرى ـ وطبيعي أن الحالتين ستؤديان الى رفع مستوى المعيشة بين المصريين ٠ هذا ومن المتوقع أن تؤدى الصناعات الحديثة فى مصر الى مضاعفة اجمالى الانتاج القومى ، خلال فترة العشر سنوات القادمة ٠

أما الطريق الثانى فهو تعمير الصحراء وتحويلها من أراض رملية قاحلة الى مناطق انتاجية نافعة ٠

تعمير الصحراء :

يقول الدكتور عمر دراز مدير معهد الصحراء : «تعاون مع الصحراء ٠٠ افهم الصحراء ، تقدم لك الخير والثمار ، اما أن تعاملها كعدو أو تحاول قهرها بالقوة فلن تقدم لك شيئا ٠٠ انها عنيدة وقاسية فى عنادها » ٠

وفي مصر صحراوات كثيرة ، ولكل منها شخصيتها ومميزاتها الخاصة ، فهناك صحراء لا تحتاج الا الى الماء حتى تدب فيها الحياة ويبتسم الزرع ، وهناك صحراء أخرى لا تجدى معها المياه ٠٠٠ أو غير المياه ٠

سيناء : ويمكن تقسيمها الى جزئين : السهل الشمالى حيث تسمح الآبار الموجودة هناك بنمو أشجار الليمون والبرتقال كما هو الحال فى منطقة غزة ٠ أما جنوب سيناء فهو منطقة جبلية لا تصلح

---

(١) هناك الآن طريق ثالث : الا وهو الاقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة حيث تعاني سهول سوريا الخصيبة وخاصة أرض الجزيرة بين الفرات والعراق نقصا كبيرا فى الأيدى العاملة ٠

للحياة اللهم الا فى بعض المنخفضات القليلة حيث تتجمع مياه الأمطار فى أحواض أو آبار عميقة كما هو الحال فى مناطق الأديرة · وهناك يقوم الرهبان بزراعة ما يكفيهم وضيوفهم من خضر وفاكهة · ولكن من ناحية أخرى نجد أن جنـوب سينا غنى بالموارد المعدنية ومناجم الفحم والمنجنيز ، كما تم اكتشاف البترول بكميات وفيرة فى أماكن متفرقة · (فى عام ١٩٥٥ بلغ انتاج سيناء من البترول الخام ٨١٩٠٢ طنا ومن المنتظر أن يصـل هذا الانتاج فى أواخـر عام ١٩٥٨ الى ٢ر٥٠٠ر٠٠٠ طن) ·

* **الصحراء الشرقية** : بين النيل والبحر الأحمـر ، ولكن مع أنهـا تفتقر افتقارا شديدا الى الماء فقد وهبتها الطبيعة بمكيات لا بأس بها من المعادن والبترول · فاذا ما أمكن توفير المياه فى هذه المنطقة أصبح من السهل اقامة مراكز صناعية هامة فى أماكن كثيرة ··· مثل القصير حيث مناجم الحديد ·

الصحراء الغربية : وتسمى أيضا بالصحراء الـكبرى · ولا شـك أنها تختزن فى جوفها كميات ضخمة من المياه تتسرب اليها من الامطار التى تسقط بغزارة على أواسط أفريقيا ــ والا فكيف يمكن تفسـير مستودعات المياه العذبة فى الواحات الداخلة والخارجة مثلا ؟ وطبيعى أن تعمير هذه الواحات والعنـاية باستصلاح أراضيها ، والعمل على زيادة عدد سكانها سيؤدى حتما الى نتائج طيبة للغاية ·

وأكثر مناطق مصر الصحراوية قابلة للاصلاح هو السهل الساحلى بين الاسكندرية والحدود الليبية · فقد كانت هذه المنطقـة من أهم موارد الغلال فى عهد الرومان وازدهرت بها الحياة وتقدمت المدنيـة وأقيمت المدن الكبرى وشيدت بها المعابد والمسارح ، وكان أن شهدت ميلاد كثير من الاباطرة والشعراء والقديسين ·

ويقوم « معهد الصحراء » بقيادة حملة كبيرة لتعمير هذه المناطق · وقبل الثورة كان هناك معهد فؤاد الاول ، ولكنه لم يتعدى أن يكون

متحفا يضم بعض النباتات والحيوانات الصحراوية ، بلا معامل ولا أبحاث ٠٠ أما المعهد الجديد الذى يحتل قصر الامير السابق يوسف كمال ويديره الدكتور عمر دراز ، فهو مزود بأحدث الوسائل العلمية وبعدد من كبار الخبراء الفنيين ٠

والحقيقة أن الدكتور دراز هذا يستحق كل تقدير واعجاب ، فهو يجمع بين العلوم الطبيعية وخبرات الحياة العسكرية ، وكان يعمل طبيبا بيطريا بالجيش المصرى ٠ ولما كان الجيش غالبا ما يقيم معسكراته فى مناطق صحراوية فقد ارتبطت حياة الدكتور دراز ارتباطا وثيقا بالصحراء وكان أن أصبح له ولع شديد بدراسة نباتات الصحارى ٠

وفى الصحراء الغربية ، وبالقرب من مرسى مطروح قضى الدكتور دراز فترة طويلة يجرى أبحاثا مستفيضة على مختلف أنواع النباتات التى تنمو هناك ٠٠ وكان ان استرعى انتباهه نوع معين من النبات يطلق عليه عرب المنطقة اسم «الحشيش الالمانى» ٠ ويتميز هذا النبات بقدرته على الاحتفاظ بخضرته ونمائه طول العام ٠٠ حتى فى أشد شهور الصيف حرارة وجفافا ، وبعد تجارب عديدة ثبت أنه من أصلح النباتات لرعى وتربية الماشية ٠

ومضى الدكتور دراز يتساءل : ترى ما هى العوامل التى أدت الى جفاف الاحواض وتحويل المنطقة الى رمال قاحلة بعد أن كانت من أحسن الاراضى لزراعة الغلال والحبوب ؟٠٠ يقول بعض الناس أن نسبة الامطار فى هذه المنطقة فى الماضى كانت أكبر مما هى عليه الآن ، ويقول البعض الآخر أن اللوم لا يقع على عاتق الطبيعة ٠٠ انما على الانسان نفسه ٠ ويميل الدكتور دراز الى الاعتقاد فى هذا الرأى الاخير ، وهو أن جفاف الارض قد جاء نتيجة لاهمال الانسان وليس بسبب بخل الطبيعة أو تقتيرها ٠

طبيعى أن متوسط سقوط الامطار فى هذه المنطقة (٦ بوصات فى

العام) لا يعتبر نسبة مرتفعة ، ولـكن الدكتور دراز يعتقد أنه اذا ما أحسن استغلالها لامكن الحصول على نتائج طيبة ٠

ونظرة سريعة الى خريطة هذه المنطقة توضح جانبا من المسألة : ذلك أن أراضي شمال أفريقيا هى فى الواقع عبارة عن هضبة مرتفعة تنحدر صوب البحر الابيض المتوسط ، وعلى طول الساحل يتخللها عدد كبير من الوديان الضـيقة ، تتآلف فى مجموعات وتكون كل مجموعة شيئا أشبه ما يكون بالقفاز تمتد أصابعه فى الهضبة المرتفعة بينما ترقد مؤخرته على الساحل بالقرب من البحر ٠ وفى الشتاء : وفى موسم الامطار الذى لا يسـتمر طويلا ينهمر المطر غزيرا فوق المرتفعات وينحـدر فى الوديان ثم يتجمع فى هـذه القفازات مكونة بحيرات لا تلبث أن تجف بعد أن تتدفق مياهها الى البحر حاملة معها بعض ما تتمتع به التربة من خصب ٠ وهنا تساءل الدكتور دراز مرة أخرى : لماذا اذن لا نشيد السدود لحجز هذه المياه ومنع تسربها الى البحر ؟

ولم تدخر ثورة ٢٣ يوليو وسعا فى تشجيع الدكتور دراز على المضى فى أبحاثه فأنشأت له معهد الصحراء وزودته بالآلات العلميـة الحديثة والخـبراء الفنيين : وهم عبارة عن ٢٠ عالمـا من أحسن علماء مصر فى الجيولوجيـا والهيدرولوجيا وعلوم التربة والنبات ٠ كمـا خصصت الثورة منطقة واسعة فى الصحراء الغربية بالقرب من رأس الحكمة التى تبعد ١٢٠ ميلا غربى الاسكندرية لابحاث المعهد وتجاربه، كخطوة أولى فى برامج مشروعاتها لتعمير الصحارى ٠

وكان الملك السابق قد أقام لنفسه استراحة خاصة فى دار الحكمة ومد اليها أنابيب المياه من الاسكندرية للانتفاع بها فى زراعة بعض الاشجار والخضراوات ٠

ولكن دراز قال لى : لقد كان هدفنا الاول هو الاستغناء عن هذه المياه القادمة من الاسكندرية ، ذلك انه من السهل على أى انسان أن

يزرع أشجار الكازوارينا طالما توفرت لديه المياه · بيد أننا كنا قد عقدنا العزم على أن نعتمد فقط على مياه الآبار والامطار وأن نزرع أشجارا لا تحتاج لنموها الى ميا ه كثيرة كأشجار الاكاسيا (السنط) مثلا ·

وعندما سألت الدكتور دراز عن مدى ما أسفرت عنه التجارب فى رأس الحكمة من نجاح أجابنى بقوله : يحسن أن ترى بعينيك حتى تتأكد بنفسك · وفعلا قررت زيارة حقول التجارب فى رأس الحكمة ···

وبعد أن اجتزنا العلمين وبعض المناطق الاخرى التى شهدت معارك الحرب العالمية الثانية وصلنا رأس الحكمة · ولما كان الليل قد أرخى سدوله ، فقد رأيت فى ضوء أنوار السيارة صفا طويلا من الأشجار « نمت وترعرعت بدون حاجة الى الرى ·· أكاسيا ·· أكثر ارتفاعا من أشجار الكزوارينا التى كان يرويها فاروق بمياه الاسكندرية » وعندما انحرفت بنا السيارة متجهة الى مبنى الاستراحة شاهدت على بعد سدا طويلا يعترض أحد الوديان المنحدرة صوب البحر · كان هذا هو كل ماشاهدته فى هذه الليلة وكان على أن أنتظر حتى الصباح لمشاهدة المزيد من هذه الاصلاحات ·

وفي الصباح عرفوني بالسيد مصطفى عسلان ، وهو رجل طويل القامة ممتلىء الجسم يبلغ من العمر حوالى ٣٩ عاما ومتزوج ·· للصحراء · ذلك أنه بعد أن قضى معظم سنى حياته فى صحراء سيناء والصحراء الشرقية بالقرب من سواحل البحر الاحمر ، وصل الى رأس الحكمة فى أغسطس سنة ١٩٥٢ · وفى ٨ اكتوبر بدأ يعمل فى جد ونشاط : أقيمت الأسوار وحفرت الآبار ، وأعيد بناء الأحواض التى كان يستخدمها الرومان ·

وبرفقة السيد عسلان قمت بجولة حول أراضى المشروع البالغ مساحتها سبعة آلاف فدان · وفى الحقيقة فقد استحوذ هذا المشروع

على اعجابي ودهشتي فى نفس الوقت : ففي الجانب الخارجي من السور الذى يسوج أرض المشروع كانت الصحراء ٠٠ نفس الصحراء التى تمتد من الاسكندرية في الشرق الى المحيط الاطلسى فى الغرب ٠ ولما كنا فى الشتاء ٠٠ فصل المطر ، فقد كانت النباتات القصيرة التى لا يزيد ارتفاعها عن بضعة سنتيمترات قليلة مبعثرة هنا وهناك فى كميات ضئيلة ٠ أما فى الجانب الآخر ، فى أراضى المشروع ، فقد رأيت - لن أقول مرجا ٠٠ فالمرج يوحى بأن الارض مستوية تغطيها الخضرة فى كل أجزائها - انما شاهدت شيئا أشبه ما يكون بحديقة تمتلىء بالزرع الأخضر والنباتات التى يصل طولها حوالى متر أو يزيد ٠

ويقول الدكتور دراز أنه بنمو هذه النباتات عاما بعد آخر ستزداد خصوبة التربة فى هذه المنطقة بحيث يتيسر زراعتها بعد ذلك بالشعير والبرسيم ٠

وتأمل السلطات المصرية أن تصبح هذه المنطقة من أصلح المناطق لرعى الاغنام ٠ ويوجد بها الآن ٧٠٠ رأس من الغنم من أنواع « بيدو » و « مارينو » المعروفة بغزارة صوفها ووفرة لحومها ، ومن المنتظر وصول ٧٠٠ رأس أخرى من المجر فى القريب ٠

وعلى مسافة أربعة أميال من رأس الحكمة حيث يوجد حوض من المياه ٠٠ يرتفع عن سطح البحر ٠٠ وهو من الصخر الصم الذى لا يسمح بتسرب المياه ، رأيت الأهالى وهم يقومون بتشييد بلدة جديدة يدعونها « فوكا » ٠ وهناك أقامت لهم السلطات المصرية الطواحين الهوائية والطلمبات الكهربائية ، لرفع المياه التى تستخدم فى زراعة الخضروات وبعض النباتات الأخرى ٠ وحدث أثناء زيارتى لبلدة « فوكا » هذه أن أرسل محافظ الاسكندرية أحد ضباطه لينوب عنه فى افتتاح السوق الذى أقامته السلطات المصرية هناك ليعمل على راحة أهالى المنطقة المعروفين باسم « أولاد على » ومساعدتهم فى عمليات البيع والشراء ٠

وقبل أن أهم بمغادرة هذه المنطقة عائدا الى القاهرة ، قال لى أحد السكان هناك ردا على سؤالى عن مساحة ما يمكن أن يستفاد به من أراض فى تلك المنطقة الساحلية : « ثلاثة ملايين فدانا من المراعى .. على الأقل » ولكن الدكتور دراز استدرجه قائلا : ربما أقل من ذلك.. وربما أكثر . وفى الواقع فان المسألة تتوقف على عوامل كثيرة : الوقت والصبر .. التعاون والاخلاص .. الخبرة والبحث . لقد أصبح لزاما علينا أن نزيل الحدود التى فرضتها علينا الصحراء ... وأن نقهر الصحراء .. والسبيل الى هذا أن نحب الصحراء .»

التصنيع :

كما أن سياسة التمصير تعتبر من السياسات التى ستعود على الشعب المصرى بالخير والرفاهية ، كذلك أيضا سياسة التصنيع التى أولتها حكومة جمال عبد الناصر كل عناية واهتمام .

ربما يكون فى زيادة المصانع بضجيجها ومداخنها .. ما يفقد البلاد شيئا من بهجتها وروعة مناظرها الطبيعية الخلابة . ولكن ما قيمة هذه المناظر بالنسبة للشعب ؟ ان المصانع .. والمداخن .. والكهرباء .. والعمل .. وارتفاع الأجور ، وتحسين مستوى المعيشة لهى أشياء أفضل بكثير من المروج الخضراء والمناظر الهادئة الجذابة التى لا تخفى وراءها الى الفقر والشقاء .

على يمين الطريق المؤدى الى حلوان رأيت قوارب شراعية جميلة تسبح فى خفة ورشاقة فوق صفحة النيل الخالد . وعلى الضفة الأخرى كانت الأهرامات الشامخة تقف كما كانت منذ آلاف السنين. أما على يسار المسافر الى حلوان فقد رأيت تلال المقطم العاتية .. تمتد وراءها الصحراء الشرقية حتى البحر الأحمر .

وفى حلوان شاهدت بناء ضخما هائلا ، لا يقل روعة عن تلك الأهرامات الخالدة .. بيد أنه من أعمال هذا الجيل ومن مفاخر

الثورة المصرية الفتية . انه مصنع كبير لانتاج الحديد والصلب .

ويعمل الآن فى هذا المعمل حوالى ثلاثة آلاف عامل ، ويصل انتاجه فى المرحلة الأولى الى ٢٢٠٠٠٠ طنـا من الصلب سنويا ، ويمكن زيادته مستقبلا بحيث تستطيع مصر أن تنتج كميات ضخمة من الصلب تكفى لسد حاجتها وتصدير الباقى الى الخارج .

وفى الحقيقة يعتبر هذا المصنع الضخم الذى يضم أكفأ المهندسين والعمال أهم المشروعات الصناعية التى تم تنفيذها فى مصر الحديثة . لقد أيقن المصريون أن التصـنيع هو سـبيلهم الوحيـد الى رفع مستوى معيشتهم والتخلص من الفقر الذى طالما قاسوا منه فترة طويلة .

وعند عودتى الى القاهرة ، شعرت برغبة ملحة تدفعنى الى رؤية أحد أصدقائى القدامى : الدكتور زكى الذى كنت قد تعرفت به عند زيارتى الأولى لمصر عام ١٩٤٩ . وكان قد بلغنى أنـه كون مع آخرين لجنة برئاسة الاستاذ العقاد لتشجيع الشعر والشعراء . وتقوم هذه اللجنة بمجهودات صادقة فى سبيل تحسين مستوى الشعر وترجمته الى اللغات الأجنبية . ويجتمع أعضاؤها مرة كل اسبوعين لدراسة القصائد والأشعار التى ترسل اليهم من صغار الشعراء الناشئين .. تلك الأشعار التى كثيرا ما يجدوا فيها نوعا من الجدة والأصالة والأفكار الحديثة المبتكرة التى تنبعث عن خبرة الشاعر الخاصة وأحاسيسه الذاتية .

أما فيما يختص بالتعليم ، فقد عرفت من الدكتور زكى أن حكومة الثورة قد بذلت — ولا تزال — جهودا جبارة للوصول بالتعليم فى مصر الى أعلى مراتب التقدم والازدهار ، وأنه قد تم افتتاح عدد كبير من المدارس خلال العامين الماضيين (بمعدل مـدرستين كل ثلاثة أيام) . وتولى السلطات عناية خاصة بالتعليم الفنى لأنه هو نوع التعليم الذى تحتاج اليه البلاد حاليا لتنفيذ مشروعاتها الحديثة .. العمرانية والصناعية والزراعية .

وبينما كنت أجلس مع الدكتور زكى وبعض رفاقه نتجاذب الحديث حول الأدب والأدباء ، سألنى أحدهم : « ما هو الفرق – فى رأيك – بين مصر الآن ٠٠ ومصر قبل الثورة ؟؟

وبناء على مشاهداتى ، وتجاربى ، والمعلومات التى جمعتها خلال زيارتى لمصر فى عام ١٩٤٩ ، وبمقارنتها بمشاهداتى وتجاربى والمعلومات التى جمعتها فى هذه الزيارة – بعد خمسة أعوام على قيام الثورة المصرية أجبته على الفور : « لقد تغيرت الأمور ٠٠٠ وصار الشعب المصرى يحس بالعزة والكرامة ٠٠٠ الرفعة والفخار ٠٠ يسير مرفوع الرأس لتحقيق مستقبل زاهر باسم » ٠

وقال آخر ٠٠٠ « هل لا يزال الشعب البريطانى يعتقد أن الاستعمار كان فى مصلحتنا ؟ ألم تعرف بريطانيا بعد أننا كنا محقين عندما هاجمنا سياستها الاستعمارية ؟ »

واسطرد يوضح كيف كانت السلطات البريطانية فى مصر تكتم أنفاس الشعب وتحول بينه وبين شتى بحور العلم والمعرفة ٠ ومضى يدلل على قوله هذا بالحقائق والارقام وكيف أن تعليم الطب مثلا قد تضاعف فى السنوات الأخيرة بحيث وصل الآن الى عشرة أمثال ما كان عليه قبل حصول مصر على الاستقلال ، وكيف أنه فى عهد الاحتلال البريطانى كانت توجد فى مصر مناطق كثيرة يزيد محيط كل منها على مائة كيلو مترا دون أن تكون لها وحدة علاجية أو عيادة طبية واحدة ٠ ولكن ما ان قامت الثورة وقضت على النفوذ الاجنبى حتى سارعت بانشاء ما يزيد عن ٥٠٠ وحدة مجمعة فى القرى تضم كل منها مستشفى به طبيب مقيم ، ومدرسة ، ومرشدا لشئون الزراعة ، ومركزا للخدمة الاجتماعية ٠

مع الرئيس جمال عبد الناصر

فى منزل الرئيس جمال عبد النـاصر ، بالقرب من ثكنات الجيش المصرى بالعباسـية ، جلست بمفردى فترة من الوقت فى حجـرة الاستقبال وبينما أنا أشرب كأسا لذيذا من عصير البرتقال ، وأجول بناظرى بين الصور المعلقة فوق الحائط ٠٠ تيتو ، والقوتلى ، وبعض أقطاب باندونج ، دخل على سكرتير الرئيس الخاص ٠ وما هى سوى لحظات قليـلة حتى كنت أتبعه عبر الردهة الفسـيحة ٠٠ الى مكتب الرئيس ٠٠

وهناك تحدثت مع سيادته ساعة كاملة فى عدد من الموضوعات المختلفة ، أيقنت بعدها بسعة اطلاعه ، وعمق خبراته ونفاذ بصيرته ، ومعرفته الدقيقة بالقـانون والتاريخ والاحداث العالميـة ٠٠ كبيرها وصغيرها ٠ وبمنتهى الدقة فى استخدام الألفاظ ، وفى أسلوب شيق جـذاب ، وبلغة انجليزية سليمة أجاب سـيادة الرئيس على هـذه الأسئلة التى كنت قد أعددتها من قبل لهذه المناسبة :

ستيورت : تقترن القومية العربيـة باسم سيادتكم ، فهـل لى أن أسألكم عن الوقت الذى بدأتم تشعرون فيه بالعروبة ٠٠

الناصر : ليس هناك وقت معين ٠٠ وقد بدأت طلائع الوعى العربى تتسلل الى تفـكيرى وأنا طالب فى المدرسة الثـانوية ، عندما كانت مشاعرى تهتز واحساساتى تتفاعل مع كل ما يدور فى الوطن العربى من أحداث ٠ وكانت أهم الأحداث التى ملكت على تفكيرى فى ذلك الوقت هى ثورة العرب فى فلسطين ، ثم الفظائع الوحشية التى كان يرتكبها الفرنسون فى سوريا ٠

ستيورت : من هم الأبطال الذين أعجبت بهم فى صباك ؟

الناصر : لقد سألنى كثيرون هذا السؤال من قبل ٠٠ وأذكر أننى

قد أعجبت فى طفولتى بعدد كبير من الأبطال . لقد أعجبنى غاندى كثيرا ،وعندما كنت صبيا أتلقى دروس الديانة فى المدرسة استحوز سيدنا محمد على كل اعجابى وتقديرى .. فقد كان قائدا وزعيما ، كرس حياته لخدمة رعيته وتحريرهم من ظلمة الجاهلية وضلالها . وانى أشكر الله لأنى قد تعلمت من سيدنا محمد عادة طيبة : الصبر . لقد ثابر محمد ثلاث وعشرين عاما لا يعرف أحدا عنه شيئا ولا يثق به أحد ولا يتبعه أحد ، اللهم سوى زوجه خديجه . بيد أنه كان يثق فى نفسه ... وفى رسالته .

ستيورت : ومن فى اعتقادكم هو أسوأ خديو تولى حكم مصر ؟

الناصر : توفيق .. لاشك فى ذلك ، لقد كان رجلا فظا .. اعتدى على حقوق الشعب وأسلم البلاد للانجليز .

ستيورت : وما ذا عن أبيه !.. اسماعيل .

الناصر : كان اسماعيل طيب القلب .. وكان يريد أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا .. ولكنه أخطأ الطريق . ان هذا الذى أراده اسماعيل لم يكن ليتحقق عن طريق بناء الطرق الخاصة والقصور الفخمة .. ودار الأوبرا . ان الطريقة المثلى فى رأيى هى العمل على رفع مستوى معيشة المواطنين بحيث تصل الى مستوى معيشة المواطنين فى أوروبا .وبما أن الزراعة وحدها لا يمكن ان تكفل للشعب المصرى حياة رغدة هنيئة فان الالتجاء الى التصنيع يعتبر أمرا لازما . وبهذه المناسبة أود أن تعرف بأننا سننتج آلات وماكينات الصناعة فى مصر .. فى العام القادم .

ستيورت : لقد اتيحت لى فرصة لزيارة حلوان .. ومما لا شك

فيه فان مصنع الحديد والصلب يعتبر من الأعمال الرائعة بحق .

الناصر : لقد أراد كرومر أن تكون مصر مزرعة تمد مصانع لا نكشير بالقطن .. أما الآن فقد أصبح التصنيع هو هدفنا الأكبر .

ستيورت : هل لى أن أسألكم عن والدكم ؟. وهل كان لأفكاره وآرائه تأثير على سيادتكم ؟؟

الناصر : كان والدنا .. ولا يزال رجلا مسالما ،، يهتم بشئون أسرته ، لا يدخن ولا يشرب ولا يجلس على المقاهى . ولم تكن له أية آراء سياسية . لقد كان يحب أطفاله حبا كثيرا وكان هدفه الأكبر أن يسلحهم بالعلم وأن يراهم وقد صاروا رجالا مستقلين يعتمدون على أنفسهم .

ستيورت : وماذا عساه أن يفكر الآن ...

الناصر : أذكر أنه قال لى مرة : ما من انسان يحب أن يرى شخصا آخر أحسن منه .. الا اذا كان هذا الشخص ابنه . ولقد كان والدى موظفا فى الحكومة ، وكنت أعيش معه أنا واخوتى فى بلدة صغيرة بالقرب من الاسكندرية . ولكنى كما قلت فقد كان والدنا يقوى فينا دائما روح الاستقلال والاعتماد على النفس ، لذلك تركت القرية وأنا لم أبلغ من العمر أكثر من ثمانية أعوام ، لذلك فترة من الوقت مع عمى .. أتعلم الاستقلال والاعتماد على نفسى .

ستيورت : ومن هم الكتاب الذين تأثرت بكتاباتهم ؟

الناصر : منذ عام ١٩٣٤ بدأت أقرأ الكثير عن مصطفى كامل .. قرأت تاريخ حياته ومقالاته الوطنية الحماسية التى كانت تنشر فى الصحف ثم شرعت بعد ذلك فى قراءة مؤلفات توفيق الحكيم والدكتور

طه حسين ٠وطبيعى أننى كنت أهتم اهتماما خاصا بقراءة كل ما يتصل بتاريخ مصر منذ القرن التاسع عشر ٠ وبالاضافة الى كل هذا وذاك ، قرأت مجموعة كبيرة من القصص والتراجم والأشعار ٠ كما كنت أجد متعةعند قراءة الكتب عن الثورة الفرنسية ٠

ستيورت : وترى من الذى حاز على اعجاب سيادتكم ؟ دانتون ٠٠ أم روبسبير ؟

الناصر : فى الواقع لا هذا ٠٠ ولا ذاك ٠ لقد أعجبنى فوليتر لأنه كان هادئا ٠٠ ولم يلجأ الى استخدام القسوة والعنف كبقية الزعماء الذين اعتادوا القتل وسفك الدماء ٠٠٠ لقد كانوا يدبرون المؤامرات ويقتلون بعضهم بعضا ٠ هل قرأت قصة شارلز ديكنز المشهورة « قصة مدينتين » ؟ لقد قرأتها عدة مرات ورأيت كيف صور الكاتب بشاعة القسوة وأعمال العنف والارهاب التى سادت فرنسا فى ذلك الوقت ٠ لقد علمتنى هذه القصة شيئا : اننا اذا شرعنا فى القتل واراقة الدماء ، فانه سيكون من الصعب حقن هذه الدماء ٠

ستيورت : وما رأى سيادتكم فى نابليون ؟

الناصر : عندما كنت طالبا بالمدرسة الابتدائية ساءنى أن أقرأ فى كتاب التاريخ أن نابليون قد غزا مصر وأنه قد وضع مدافعه فوق تلال المقطم وأمطر القاهرة بوابل من القنابل ٠ لقد كان نابليون يعتقد فى سياسة القوة والعنف التى أكرهها ولا أعترف بها ٠

كذلك أيضا الثورات ٠٠ يجب أن تقوم على أساس من المبادئ والمثل العليا ، وليس على القوة والعنف واراقة الدماء ٠

فاذا نظرنا مثلا الى الثورة التركية وجدنا أن أتاتورك كان قاسيا

خلوا من المبادىء والأخلاق ، فقد وقع بيده وثيقة اعدام أعز أصدقائه وأقربهم الى قلبه ٠٠ دون أن يتأثر ٠

ما فائدة الثورات اذن اذا كانت ستؤدى الى الارهاب والبطش وسفك الدماء ؟٠

ستيورت : ولكن ألم يكن فى كراهيتكم للحروب . واعجابكم بالزعيم الراحل غاندى ما يتعارض مع اختياركم العمل كضابط فى الجيش ؟؟

الناصر : يختلف الدور الذى يلعبه الجيش من دولة لأخرى ٠٠ وأحب أن أقول لك بأن الجيش المصرى هو قوة سلام ٠٠ وليس قوة حرب ٠

وربما لا تعلم أننى فى فجر الثورة كنت ضد فكرة تكوين جيش كبير لأننى كنت أتمنى الحياة فى سلام ومودة مع جميع الدول ٠ بيد أن الهجوم الوحشى الذى شنته اسرائيل على غزة غيرت هذه الفكرة ٠٠ فى ليلة واحدة ٠٠ ٢٨ فبراير ١٩٥٥ ٠ فى هذه الليلة أيقنت أننا فى حاجة الى السلاح ٠٠ للدفاع عن سلامة أراضينا - لقد رأيت اللاجئين فى فلسطين . وكان يعز على أن أرى المصريين وقد صاروا هم أيضا لاجئين ٠٠ طلبنا السلاح من الغرب ٠٠ ورفض الغرب أن يمدنا بالسلاح ٠ توجهنا الى تشيكوسلوفاكيا وأخذنا منها ما نريد بلا شروط ولا قيود ٠

ستيورت : عودة الى الى القومية العربية ٠٠٠ من هو المواطن العربى – فى رأيكم ؟

الناصر : كل من كانت اللغة العربية هى لغته الأصلية ٠

ستيورت : ما ذا يعنى قول سيادتكم بأن العرب جميعا أمة واحدة ؟ هل معنى ذلك أن الالمان مثلا يكونون أمة واحدة على الرغم من انقسامهم الى شرق وغرب ؟ أم أن شعوب أوروبا مثلا يمكن أن تكون أمة واحدة ؟؟

الناصر : العرب جميعا يتكلمون لغة واحدة .. وهذا ما لا يحدث فى أوروبا والأهم من ذلك هو أن الشعوب العربية كلها تتشابه فى استجاباتها للاحداث : أى أنه اذا وقع حادث فى أى جزء من أجزاء الوطن العربى أحس به العرب فى شتى دبارهم .. من المحيط الاطلسى الى الخليج الفارسى . هذا ولا تنسى أنهم كانوا ضحايا نفس القوى الاستعمارية طوال قرن من الزمان .

ستيورت : ومن هم المسئولون عن تأخير انتصار القومية العربية حتى الآن .

الناصر : مجموعة من القوى الاستعمارية الاجنبية يعاونها الزعماء السياسيون داخل البلاد العربية الذين لم يكن يهمهم سوى العمل على تحقيق أغراضهم الذاتية .

ستيورت : هل يعتقد سيادتكم أن كرومر كان مخلصا ، وأنه كان يعمل لما فيه مصلحة الشعب .

الناصر : مخلصا .. نعم لكنه كان مخلصا للاستعمار لقد أراد مخلصا أن يستبد بالمصريين ويتحكم فى مصائرهم ، واستغلالهم لما فيه مصلحة بلاده .

ستيورت : ولكن ما هى الفوائد التى ستحققها القومية العربية ؟ .

الناصر : تهدف القوميـة العربية الى استقلال العرب وضمان

حريتهم وسلامتهم . اننا لا ننشد التدخل في شئون الدول الأخرى، وكل ما نريده هو تحقيق السعادة والرفاهية لجميع أبناء الوطن العربى .

ولقد تبلورت فى ذهنى فكرة القومية العربية كمذهب سياسى عندما كنا ندرس فى كلية أركان الحرب المشكلات الاستراتيجية الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط . وكنت قد قرأت تاريخ العرب منذ أقدم العصور ، وعرفت أنه عندما كان العرب وحدة متماسكة ، استطاعوا رد المعتدين على أعقابهم ، كماحدث أيام الحروب الصليبية .. ولكن بعد أن فرق المستعمرون بين العرب ، أصبحوا عرضة للهزيمة وفريسة للسيطرة الأجنبية . وكانت هذه الحقيقة ما ثلة أمام عينى طوال فترة المناقشة التى كانت تدور حول وسائل الدفاع عن مصر ولأول وهلة ، اتضح لنا أن مصر ، مثلها فى ذلك مثل كل جزء من أجزاء الوطن العربى ، لا يمكن أن تضمن سلامتها الا مجتمعة مع كل شقيقاتها فى العروبة فى وحدة متماسكة قوية .

ستيورت : ومتى كانت هذه المناقشات ؟

الناصر : فى العام السابق للثورة .. فى عام ١٩٥١ . والشىء الثانى الذى أود أن أوضحه هو أن موقع مصر الجغرافى والأستراتيجى الهام كان دائما هو نقطة الضعف بالنسبة لها ، وأنه بسبب هذا الموقع الممتاز تسابقت الدول الى احتلالها : ففى عام ١٥١٧ احتلها الأتراك لأنها كانت تسيطر على طرق التجارة والمواصلات الى الشرق، ولنفس هذا السبب احتلها نابليون عام ١٧٩٨ .. ثم بريطانيا عام ١٨٨٢ . لذلك كان هدفنا منذ البداية هو أن نجعل من هذا الضعف قوة ، وأن نستغل هذا الموقع الممتاز لما فيه سعادة المصريين أنفسهم -

وقمنا بعد ذلك بدراسة ثروات العرب ·· وخاصة البترول ، وعرفنا أن هذا البترول يمكن استخدامه لمصلحة العرب·· ليس معنى هذا أننا نريد تضييق الخناق على دول أوروبا ، بل على العكس من ذلك ، لقد كان هدفنا هو أن نحمل الغرب على التعاون معنا ·· كنظراء ، وأن يتعامل معنا معاملة الند للند ، وألا نتيح له فرصة السيطرة علينا من جديد · وهذا هو نفس الذى حدث فى القنال : عندما تم انشاؤها ظن اسماعيل أنها ستجلب على البلاد خيرا وفيرا ·· ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ لقد أدت القناة خدمات جليلة للعالم أجمع ·· ما عدا مصر ، وكان المستعمر يتخذ هذه القناة ذريعة لاحتلال البلاد · وهكذا كان علينا أن نغير هذه الاوضاع المقلوبة ، وأن نجعل من هذه القناة عاملا من عوامل قوتنا بعد أن ظلت هى أول عوامل اضعافنا ·

وهكذا اتخذت القومية العربية طابعها كضرورة استراتيجية : وذلك لضمان سلامة الوطن العربى ، وكمذهب سياسى : يمكننا من الحصول على صداقة العالم أجمع ، وأن نقوم بدور ايجابى فعال فى خدمة الانسانية ، لا أن نكون عبيدا ننفذ ما يصدر الينا من أوامر ·

ستيورت : ما قول سيادتكم فى علاقتكم بالشعوب الاخرى ؟

الناصر : لا شك أن علاقتنا بسائر الشعوب طيبة الى حد كبير ، ففى كل يوم يصلنى ما يقرب من ٣٥٠٠٠ رسالة من شتى أنحاء العالم ·· من عرب البرازيل ومن أفريقيا واستراليا ·· ومن الامريكيين فى لوس انجيلوس وكاليفورنيا ونيويورك ·· لقد كتب لى عدد من الامريكيين يعتذرون عن تصرفات مستر دالاس · كما تصلنى أيضا خطابات كثيرة من بريطانيا وألمانيا والصين ويوغوسلافيا ·

ستيورت : سؤال أخير ٠٠ ماذا كان شعور سيادتكم ابان حرب السويس ٠٠ أقصد بعد أن وجهت بريطانيا انذارها الى مصر ؟

الناصر : لقد ارتكب ايدن حماقة كبرى ٠ ولم يكن يخطر ببالى أبدا أنه جاد فى انذاره لأننى كنت واثقا من أن الهجوم على مصر سيكلف بريطانيا الشىء الكثير ٠

ولكن تم العدوان الثلاثى الغاشم ٠٠٠ وانتصرنا ٠٠ وعاد المعتدون يجرون أذيال الهزيمة والعار ٠

وفى المساء ٠٠ وبعد انتهاء مقابلتى مع السيد الرئيس جمال عبد الناصر ، قمت ـ وما زالت كلماته القوية تطن فى أذنى ـ بجولة طويلة فى شوارع المدينة الكبيرة ٠

وفى ميدان التحرير شاهدت بناء ضخما لا يزأل فى طور الانشاء ذلك هو فندق هيلتون السياحى الذى أقيم فى نفس الارض التى كانت تحتلها ثكنات الانجليز منذ أعوام ٠٠ وبجواره يقف البناء الرائع الجديد لجامعة الدول العربية ٠ وعندما اجتزت الميدان شاهدت فندق شبرد الضخم . وبينه وبين النيل الخالد مشيت فى طريق الكورنيش البديع الذى يسير بمحاذاة النيل من القناطر الخيرية شمالا الى حلوان فى الجنوب ٠ وكان الطريق يغص بعدد كبير من أبناء الشعب المصرى الناهض يتنزهون على شاطىء النهر الهادىء ويستمتعون بنسيم المساء الذى ينعش الصدور ٠

وفى جاردن سيتى ٠٠ وبعد أن اجتزت مبنى السفارة البريطانية رأيت عمارة ضخمة شاهقة الارتفاع ٠أشبه ماتكون بناطحات السحاب

الامريكيـــة . وفى الشوارع الجانبيـــة ، كنت أرى متاجر الشرق الصغيرة ، ومحال الخضر والفاكهة وقد امتلأت بألذ الفواكه وأطيبها .. رجال طوال شامخو الرءوس فى تلابيب فضفاضة بيضاء . وأطفال صغار يلعبون أمام بيوتهم .. حركة دائبة .. ونشاط مستمر ... انه الشرق العظيم الذى سحر السائحين من الانجليز ، والذى لا يزال يستأثر بألباب الكثيرين من الضيوف الاجانب . وفى كل محل .. وفى كل متجر ، رأيت صورة ذلك الرجل العظيم الذى خلق مصر من جديد ، وألبسها ثوبا قشيبا زاهى الالوان .

وعندما عدت مرة أخرى الى ميدان التحرير ، الذى يفوق ميدان ترافلجر اتساعا ، وجدته يغص بجموع غفيرة من أبنـــــاء الشعب يفترشون أرضه الخضراء ويستنشقون الهـــــواء النقى بينما يمرح أطفالهم أمامهم فرحين بأنفسهم مبتهجين بأضواء النافورة المتغيرة . وبينما أنا فى هذا الميدان الفسيح هبت نسمة من الهواء البــــارد وعرفت على الفور أن القاهرة الكبيرة، بمدنيتها وحضارتها .. بمبانيها وحدائقها ، لا تبعد كثيرا عن الصحراء .. وعلى امتداد ناظرى رأيت فوق تلال المقطم أنوارا تتلألأ فى الظلام ، وعرفت بعد ذلك أنهـــا أضواء مدينة جديدة شيدها المصريون فوق التــــلال . ومع ازدحام الميدان بالجالسين فوق الحشيش الأخضر .. والرائحين والغادين .. والعربات وقطارات الترام ، كان كل شىء يبدو دقيق الترتيب ، حسن النظام ، يوحى بنظافة الشعب وذوقه السليم .

ها هو الشعب المصرى الذى ربما لم يعرفه أحد فى بريطانيا على حقيقته كما عرفته أنا .. ها هو الشعب العظيم الذى رأيت فى كل وجه من وجوه أبنائه شخصية مختلفة .. وصورة متباينة . بيد أن

هناك وراء هذا الاختلاف وذاك التباين صفة واحدة يشتركون فيها جميعا رجال ونساء وأطفال ٠٠ وحدة متماسكة، وتآلف متين ،وكفاح ونضال من أجل مستقبل زاهر وحياة أفضل ٠ ومن أجمل الصفات التى يتميز بها هذا الشعب المصرى المكافح تلك الروح المرحة والشجاعة الفائقة التى يواجه بها أشد الازمات وأقساها ٠ وفى الحقيقة فان بشاشة المصريين ، ورحابة صدورهم الى جانب قدرتهم على العمل الجاد المتواصل هى سر انتصارهم على كل ما يعترض سبيلهم من مشكلات ٠

خاتمـــة

لم تترك لى الأحداث فرصة كتـابة الخاتمة التى كنت قد أعددتها لهذا الكتاب ٠٠ وجاء التاريخ ليسطر هذه الخاتمة بنفسه ٠٠ كان هذا فى فبراير ســـنة ١٩٥٨ عندما أصبحت « جمهورية مصر » الاقليم الجنوبى فى الجمهورية العربية المتحدة ٠

ففى مساء اليوم الاول من شهر فبراير سنة ١٩٥٨ أعلن الرئيسان شكرى القوتلى وجمال عبد الناصر قرارا بتكوين الجمهورية العربيـة المتحدة ٠٠ وفى اليوم الحادى والعشرين من نفس الشـــهر صدق الشعبان المصرى والسورى على هـذا القرار بأغلبية ساحقة ٠ ومما هو جدير بالذكر أن هذه هى المرة الاولى التى توجهت فيهـــا المرأة السورية للادلاء بصوتها فى صناديق الانتخاب ٠

هذا القرار التاريخى الرائع الذى اتخذه شعبان شقيقان انما يفصح عن بعض الحقائق الهامة فى منطقة الشرق الاوسط : رغبة الشعوب العربية فى الوحدة ٠ قوة الثورة المصرية وسرعة انتشار مبادئهـــا الاصلاحية ، التأييد الشامل الذى يتمتع به الرئيس جمال عبد الناصر ٠

لقد كان للاعمال المجيدة التى قامت بها ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فى مصر ، أثر كبير فى اقنـــاع العرب فى شتى ديارهم بضرورة التحرر تحررا كاملا حقيقيا من النفوذ الاجنبى ٠٠ والسيطرة الخارجية ، ومن الحكام الطغاة ٠٠ والفقر الذى أثقل كاهلهم فترة طويلة ٠ وفى نفس هذه الاثناء ازداد حب الشعوب العربية للرئيس عبد الناصر ٠٠ من باندونج الى السويس ٠٠ بورســـعيد وغزة ٠٠ ثم الى دمشق وحلب ٠

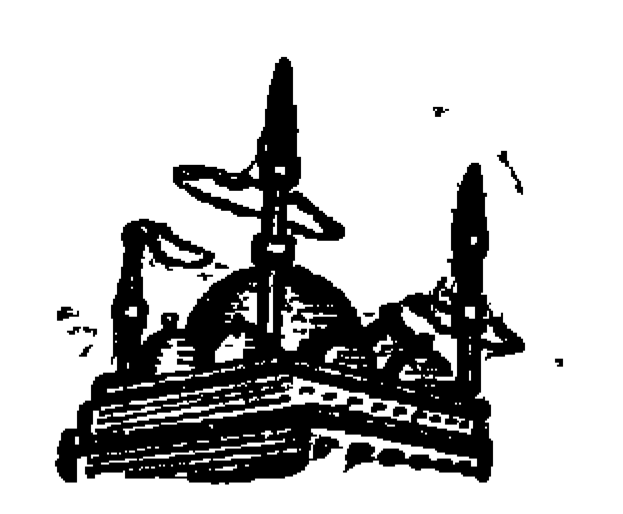
وفى الواقع فان الدافع الاول لتحقيق الوحدة الشاملة بين الشعبين الشقيقين قد جاء نتيجة اعتراف العرب جميعا بتلك الحقيقـــة الهامة التى عرفها الرئيس جمال عبد الناصر منذ وقت طويل مضى ، والتى تأكد منها وهو لم يزل بعد ضابطا صغيرا تحاصره نيران الاعداء ٠٠ فى الفالوجا : لقد أيقن عبد الناصر حينذاك أن العرب جميعا شعب واحد يواجهه نفس الاعداء ونفس المشكلات ٠٠ وأنه طالمـــا قسمته الحدود المصطنعة والمنازعات بين الاسر الحاكمة ، فانه سيظل يقاسى نفس المصير ٠٠ الاستغلال والسيطرة الاجنبية بل والطرد ٠٠٠ لقد عرف عبد الناصر أيضا أن الوحدة بين الشعوب العربية هى سبيلهم الوحيد الى بناء حضارة جديدة تليق بماضيهم التليد ، وتمهد الطريق الى مستقبل سعيد جدير بحياة أبناءهم من بعدهم ٠ وبمثل هـذه الروح القوية ، والاعتقاد الراسخ مضى السوريون والمصريون فى ٢١ فبراير الى صناديق الانتخاب يعربون عن تأييدهم الصادق وفرحهم العميق بتحقيق أمنيتهم الكبرى ٠٠ الوحدة الشاملة ٠



RADAR
TEMPO
NEWSW
مجلة المجلات العالمية
EUROPEO
OGGI
MATCH
POST
SPHERE

فهرس الكتاب

صدر فى ٢٦ يوليو ١٩٥٨



دار القاهرة للطباعة
٢٦ شارع منصور

مجموعة عربية ١٠٠٪

تبحث فى مشاكل الساعة الدولية

السياسية والاجتماعية والاقتصادية

من وجهة النظر العربية

تصدرها لجنة

كتب سياسية

صدر من هذه المجموعة سبعون كتابا

الكتاب الحادى والسبعون : مصر الفتية

دار القاهرة للطباعة

الثم